

مَسَالِكُ الْفَلَسَفَةِ السِّيَاسِيَّةِ الْمُعَاَصِرَةِ مِنْ أَجْلِ فِلْسَفَةِ دِيمُقْرَاطِيَّةٍ مُتَكَامِلَةٍ الدِّيمُقْرَاطِيَّةُ التَّشَارِكِيَّةُ وَالدِّيمُقْرَاطِيَّةُ التَّدَاوُلِيَّةُ أَنْمُودَجًا

Contemporary political philosophy approaches to a comprehensive democratic philosophy: the model of participatory democracy and deliberative democracy

ناصر الدين بوجاوي¹

¹ جامعة مولود معمري - تيزي وزو (الجزائر)، nacer-eddine.boudjaoui@ummtto.dz

تاريخ النشر: 2026/04/12

تاريخ القبول: 2026/03/15

تاريخ الاستلام: 2025/10/22

ملخص: يتناول هذا المقال، في إطار سَجالاتِ الفَلَسَفَةِ السِّيَاسِيَّةِ المُعَاَصِرَةِ حَوْلَ مَعْنَى الدِّيمُقْرَاطِيَّةِ فِي عَالَمٍ مُعَقَّدٍ وَمُتَسَارِعٍ، إِمْكَانَ التَّوْفِيقِ بَيْنَ الدِّيمُقْرَاطِيَّةِ التَّشَارِكِيَّةِ وَالدِّيمُقْرَاطِيَّةِ التَّدَاوُلِيَّةِ، وَذَلِكَ مِنْ أَجْلِ تَعْرِيزِ مُشَارَكَةِ الْمَوَاطِنِينَ، وَتَجْوِيدِهَا فِي صُنْعِ الْقَرَارِ الْعَامِّ. تَنْطَلِقُ هَذِهِ الدِّرَاسَةُ مِنْ إِشْكَالِيَّتَيْنِ أَسَاسِيَّتَيْنِ: مَا الْمَبَانِي النَّظَرِيَّةُ وَالْفَلَسَفِيَّةُ الَّتِي تَقِيمُ عَلَيَّهَا الدِّيمُقْرَاطِيَّةُ التَّشَارِكِيَّةُ وَالدِّيمُقْرَاطِيَّةُ التَّدَاوُلِيَّةُ وَجُودَهُمَا؟ وَأَيُمْكِنُ لِلِإِلَيَّاتِ الْمَدَاوَلَةِ أَنْ تُحَسِّنَ نَوْعِيَّةَ الْمَشَارَكَةِ وَشَرْعِيَّةَ الدِّيَاسَاتِ، مَا دَامَتْ مُحْكُومَةٌ بِمُؤَسَّسَاتٍ رَاسِخَةٍ وَتَشْرِيعَاتٍ إِجْرَائِيَّةٍ مَرْنَةٍ؟ وَلِلْإِجَابَةِ عَنْ هَاتَيْنِ الْإِشْكَالِيَّتَيْنِ، أَطَرْنَا مَقَالَاتَنَا بِالْمَنْهَجِ التَّحْلِيلِيِّ الْمَقَارِنِ، الَّذِي نَفَكْنَا بِهِ مَفَاهِيمَ كُلِّ مِنَ النَّظَرِيَّتَيْنِ الدِّيمُقْرَاطِيَّتَيْنِ، وَنَسْتَخْرِجُ مَوَاطِنَ التَّفَاقُهِمَا وَاخْتِلَافِيَّهِمَا، مَعَ تَسْلِيْطِ الضُّوءِ عَلَى مَا يُمَكِّنُ أَنْ يُحَقِّقَ بَيْنَهُمَا تَكَامُلًا وَتَفَاعُلًا بِنَاءً. وَقَدْ انْتَهَى الْمَقَالُ إِلَى اسْتِنْتِاجٍ أَنَّ الدِّيمُقْرَاطِيَّةَ التَّدَاوُلِيَّةَ تُعَزِّزُ نَوْعِيَّةَ الْمَشَارَكَةِ السِّيَاسِيَّةِ، شَرْطٌ أَنْ تَقُومَ عَلَى شُرُوطٍ تَمَكِّنُ مَعْرِفِيَّةً وَلُغَوِيَّةً، وَأَطُرُ مُؤَسَّسَاتِيَّةً وَقَانُونِيَّةً رَاسِخَةً تَضْمَنُ تَكَافُؤَ الْفُرْصِ وَتَمْنَعُ الْهَيْمَنَةَ الرَّمَزِيَّةَ، وَتُؤَسِّسُ لِمُمَارَسَاتٍ سِيَاسِيَّةٍ أَعَمَّقَ وَلِحُكَامَةٍ أَدُومَ.

كلمات مفتاحية: الدِّيمُقْرَاطِيَّةُ التَّشَارِكِيَّةُ، الدِّيمُقْرَاطِيَّةُ التَّدَاوُلِيَّةُ، التَّمَكُّنُ، الْعَدَالَةُ... الْمَسَاوَاةُ.

Abstract: This article is part of contemporary debates in political philosophy on the meaning of democracy in a complex world. It questions the possibility of articulating participatory democracy and deliberative democracy in order to strengthen and qualify citizen participation. Two questions guide the analysis: What are the theoretical and philosophical foundations on which participatory democracy and deliberative democracy base their existence? Can deliberative mechanisms improve the quality and legitimacy of policies? The study adopts an analytical and comparative method: it deconstructs the key concepts of the two models, identifies convergences and divergences, and explores avenues for constructive complementarity. It concludes that deliberative democracy improves the quality of political participation if it is based on cognitive and linguistic empowerment and stable institutional and legal frameworks, laying the foundations for sustainable and reflexive governance.

Keywords: participatory democracy; deliberative democracy; empowerment; justice; equality.

1. مقدمة:

في ظلِّ عُرُوفِ المواطنين في كثيرٍ من دُولِ العالمِ عن المشاركةِ في العمليَّاتِ الديمقراطيَّةِ والمشاريعِ التنمويَّةِ؛ بسببِ فَقْدانِ الثقةِ في آلياتِ عملِ الديمقراطيةِ التَّقليديَّةِ النيابيَّةِ وفي القائمينَ والفاعلينَ السياسيَّينَ الذين يَخْجِدُونَهَا مَطِيَّةً لِمَكاسِبِ الماديَّةِ والرَّمزيَّةِ، وَبَعْدَ مَا أُخْلِدَ الكَثِيرُ مِنَ المنظرينَ في الفَلَسَفَةِ السِّياسيَّةِ وَالْعُلُومِ السِّياسيَّةِ إِلَى بَيانِ حُدُودِها وَضُرُورَةِ تحسِينِها؛ إِذْ فَشَلَّتْ في الوفاءِ بِوَعُودِها في توسيعِ مُشاركةِ المواطنين وإِعادةِ توزيعِ السُّلطةِ في فضاءاتِ صُنْعِ القَرارِ، أَشْرَقَتِ النُّظَرِيَّةُ السِّياسيَّةُ المعاصِرَةُ بِأُطْرُوحَةِ جَدِيدَةٍ في تَدبِيرِ الجِسْمِ الاجتماعيِّ. وَقَدْ حَمَلَتْ هَذِهِ الأُطْرُوحَةُ اسْمَ الدِّيمقراطيةِ التَّشاركيَّةِ Participatory Democracy، حَيْثُ يَنْهَضُ المواطنونَ بِالمشاركةِ المباشرةِ في تَدبِيرِ شُؤُونِ الحُكْمِ والسِّياسَةِ، بِاعتبارهم رَكِيزَةً أساسِيَّةً في العمليَّةِ السِّياسيَّةِ. وَمَا كَانَ لِلدِّيمقراطيةِ التَّشاركيَّةِ إِلا أَنْ تَمْضِيَ في إِشراكِ المواطنين أَبْعَدَ مِنْ اخْتِزالِ وُجُودِهِم السِّياسيِّ في مَحْضِ التَّصْويتِ Voting، بِإدماجِ الآلياتِ التَّشاركيَّةِ فِيهَا بُغْيَةً خَلَقَ جَماعاتٍ لِلجِسْمِ الاجتماعيِّ يُسْهِمُ فِيهِ كُلُّ أَغْضائِهِ، دُونَما إِفْصاءٍ لَأَحَدٍ، مَا يُجَنِّبُ المواطنينَ شَكْلاً مِنْ أَشْكالِ الحِيفِ والتَّفَاوُتِ الاجتماعيِّ. لَكِنَّها، عَلَى مَا تَحْمِلُهُ مِنْ آمالٍ مُشرِّقةٍ، فَقَدْ لَقِيَتْ تَحْدِيَّاتٍ كُبرى في تَطْبِيقِها التَّفْصيليَّةِ. لَا يَسَعُنَا أَنْ نَذْكَرَ سِوَى نَوعَيْنِ مِنَ التَّحْدِيَّاتِ؛ أَوَّلُهُما التَّحْدِيَّاتُ المُؤَسَّسِيَّةُ Institutional مِنْ قَبِيلِ غِيَابِ الأطرِ القانونيَّةِ أو الدَّعْمِ المُؤَسَّسِي، ثَانِيَهُما التَّحْدِيَّاتُ الثقافيَّةُ Cultural، مِثْلُ نَقْصِ الوَعْيِ السِّياسيِّ لدى الكَثِيرِ مِنَ الشُّرائِحِ الاجتماعيَّةِ. وَمَا هَذِهِ التَّحْدِيَّاتُ غَيْرُ عَقَبَاتٍ (Barriers) أَمَامَ تَحْقِيقِ الدِّيمقراطيةِ في صُورِها المِثْلِي. في عُرْضِ هَذَا النِّقاشِ الخَصِيبِ، أَطَلَّتْ عَلَيْنَا نَظَرِيَّةُ الدِّيمقراطيةِ التَّدَاوُلِيَّةِ الَّتِي أَصْلَها الفَلَسَفَةُ السِّياسيَّةُ المعاصِرَةُ تَأْصِيلاً فِلْسَفيّاً لَا سَبِيلَ فِيهِ لِلتَّدَاوُلِ عَنِ الاِزْتِباطِ بِالاعْتِرَافِ الاجتماعيِّ وَلَيْسَ لِلْمُشارَكةِ فِيهِ مَذْهَبٌ عَنِ الاِفْتِرَاقِ بِالْعَدَالَةِ الاجتماعيَّةِ، حَيْثُ التَّشْدِيدُ الفَلْسَفيُّ عَلَى دَوْرِ الخِطابِ العقلانيِّ (Rational Discourse) وَالتَّدَاوُلِ بَيْنَ المواطنينِ، اِبتِغَاءً أَنْ يُصَارَ إِلَى اتِّخَاذِ قَراراتٍ عَقْلانيَّةٍ نَاجِمةٍ عَنِ فَهْمٍ عَمِيقٍ لِمُخْتَلِفِ وَجْهاتِ النُّظَرِ. لَا يَفْتَصِرُ هَذَا النِّهْجُ التَّدَاوُلِيَّ في مُمارَسةِ الدِّيمقراطيةِ على الاسْتِفتاءِ Referenda أو التَّصْويتِ، وَإِنَّمَا يُعْطَى لِلتَّفَاعُلِ الجِواريِّ قِيَمَةً عُلْيَا في ظِلِّهِ يَجْري تَدَاوُلُ الأَفْكارِ وَتَبَادُلُ الآراءِ مِنْ أَجْلِ الوُصُولِ إِلى قَرارٍ مَكِينٍ مُتكامِلٍ يَنْمُ مِنْ وَجْهِه عَنِ رُوحِ التَّعاوُنِ وَمِنْ وَجْهِه آخَرٍ يَشِفُّ عَنِ الفَهمِ المُتبادلِ.

في عَالَمٍ لَا يَنْفَكُ يَزْدَادُ عَقِيداً وَتَسَارُعاً، تَأْتِي الدِّيمقراطيةُ التَّدَاوُلِيَّةُ لِتَخْلَعَ عَلَى الدِّيمقراطيةِ التَّشاركيَّةِ عُمُقاً حَقِيقِيّاً مِنْ خِلَالِ الجِوَارِ والجِجَاجِ، وَهَكَذَا يُصَارُ مِنْ رُئيَّةِ تَكثِيفِ المُشارَكةِ وَجَمْعِ الأصْواتِ إِلَى رُئيَّةِ جُودَةِ العمليَّةِ التَّشاركيَّةِ المُنوطَةِ بالجِجَاجِ والتَّسْوِيعِ العَقْلانيِّ، كَمَا اقْتَرَحَتْهُ عَقْلانيَّةُ يُونْغانِ هَابرماسِ التَّواصُليَّةِ، فَتَتَضَاقَرُ جُهودُ المَقارِبَتَيْنِ، في إِطارٍ تَتَوَازَنُ فِيهِ المُشارَكةُ الحُرَّةُ لِلْمُواطنينِ مَعَ النِّقاشِ العَقْلانيِّ الَّذِي يُقْلِصُ دَائِرَةَ التَّحْيِزِ والهِوَى، فَتَنْتُجُ تَوافُقاتٌ قَابِلَةٌ لِلرَّجْمَةِ إِلى تَنْفِيدٍ وَمَوْفُوقَةٍ عَلَى مُسَوَّغَاتٍ عامَّةٍ.

إِذِ الْمَشَارَكَةُ مِنْ دُونِ تَدَاوُلٍ تُفْضِي إِلَى قَرَارَاتٍ لَنْ تَبْلُغَ الْغَايَةَ الْمَرْجُوءَةَ مِنْهَا، مِثْلَمَا أَنَّ التَّدَاوُلَ Deliberation
دُونِ مُشَارَكَةٍ Participation لَنْ يَكُونَ مَسْلَكًا دِيمُقْرَاطِيًّا.

تَقُومُ أَهْمِيَّةُ هَذَا الْبَحْثِ عَلَى ثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ: أَوَّلُهَا الْأَهْمِيَّةُ النَّظَرِيَّةُ الْمُكْوَلَةُ إِلَى سَعْيِ الْمَقَالِ إِلَى رِبْطِ بَيْنِ
نَظَرِيَّتَيْنِ مُعَاصِرَتَيْنِ لَا تَعْرُتَانِ عَنْ أَيِّ بَاحِثٍ فِي حَقْلِ الْفَلَسَفَةِ السِّيَاسِيَّةِ وَالنَّظَرِيَّةِ السِّيَاسِيَّةِ، وَهُمَا نَظَرِيَّةُ
الدِّيمُقْرَاطِيَّةِ التَّشَارِكِيَّةِ وَنَظَرِيَّةُ الدِّيمُقْرَاطِيَّةِ التَّدَاوُلِيَّةِ، حَيْثُ يُعْرَضُهُمَا الْمَقَالُ لَا كَأَطْرُوحَتَيْنِ مُتَنَاقِضَتَيْنِ،
بَلْ كَمَنْظُورَيْنِ يَتَقَوَّيَانِ مِنْ بَعْضٍ. ثَانِيهَا الْأَهْمِيَّةُ الْمُنْهَجِيَّةُ التَّطْبِيقِيَّةُ الْمُوقَفَةُ عَلَى الْقَوَاعِدِ الْإِجْرَائِيَّةِ
procedural rules وَمُؤَشِّرَاتِ الشَّرْعِيَّةِ indicators of legitimacy وَقَابِلِيَّةِ التَّنْفِيزِ implementability
الَّتِي تُمَكِّنُ صُنَاعَ السِّيَاسَاتِ وَالْفَاعِلِينَ الْمَدَنِيِّينَ مِنْ تَقْوِيمِ آيَاتِ الْمَشَارَكَةِ، وَإِعَادَةِ هَيْكَلَتِهَا، بِمَا يُعَزِّزُ مِنْ
التَّمَكُّنِ السِّيَاسِيِّ، وَيَحْدُ مِنْ الْهَيْمَنَةِ الرَّمْزِيَّةِ Symbolic hegemony، إِلَى أَنْ تُحَوَّلَ إِلَى إِجْرَاءَاتٍ إِدَارِيَّةٍ
وَقَانُونِيَّةٍ نَافِذَةٍ. وَثَالِثُهَا الْأَهْمِيَّةُ الْاجْتِمَاعِيَّةُ وَالسِّيَاسِيَّةُ الَّتِي تُفْرِجُ عَنْهَا مُفْضِيَاتُ الْمَشَارَكَةِ الْمُنْفَحَةِ
بِالتَّدَاوُلِ، وَمِنْهَا اسْتِعَادَةُ الْمَوَاطِنِينَ لِلثِّقَةِ فِي الْعَمَلِيَّةِ الدِّيمُقْرَاطِيَّةِ، وَمِنْ ثَمَّ تَقْلِيصُ فَجَوَاتِ التَّمَثِيلِ
النِّيَابِيِّ.

إِنَّ غَايَتَنَا مِنْ هَذَا الْمَقَالِ هُوَ بَيَانُ مَا هِيَ الدِّيمُقْرَاطِيَّةُ التَّشَارِكِيَّةُ وَالآيَاتُ تَرْسِيخُهَا مِنْ جَانِبٍ، بِقَدْرِ مَا كُنَّا
نَهْدِفُ إِلَى تَحْلِيلِ الْعَلَاqَةِ بَيْنَ الدِّيمُقْرَاطِيَّةِ التَّشَارِكِيَّةِ وَالدِّيمُقْرَاطِيَّةِ التَّدَاوُلِيَّةِ، غَيْرَ أَنَّ مَرَامَنَا الْأَكْبَرَ مِنْهُ
كَانَ بَسْطُ الْمَسَالِكِ النَّظَرِيَّةِ وَالْمَعْيَارِيَّةِ وَالْإِجْرَائِيَّةِ الَّتِي يَهَا نَضْمُنُ آيَاتِ تَدَاوُلِيَّةً عَلَى غِرَارِ مَنَابِرِ الْحَوَارِ
وَالْجَجَاجِ فِي أَدَوَاتٍ تَشَارِكِيَّةٍ مِنْ قَبِيلِ الْمَجَالِسِ النِّيَابِيَّةِ وَالْمِيزَانِيَّاتِ التَّشَارِكِيَّةِ، بِقَدْرِ مَا نَرُومُ بَيَانُ الْمَوَاقِعِ
الَّتِي تُحَوَّلُ دُونَ تَحْقِيقِ مُمَارَسَةٍ حَقِيقِيَّةٍ فَعَالَةٍ لِلدِّيمُقْرَاطِيَّةِ، كَغِيَابِ مَوَارِدِ تَمَكُّنِ الشَّرَائِحِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ، لَا
سِيَّامَا الْأَقْلَ حَظًّا مِنْهَا، مِنْ اسْتِغْلَالِ فِضَاءَاتِ الْمَشَارَكَةِ، وَكُنْفِصِ الْوَعْيِ الْمَعْرِفِيِّ وَالثَّقَافِيِّ الَّذِي يُسَخَّرُ لَهَا
الْإِضْطِلَاقُ بِدَوْرِهَا الْمَطْلُوبِ.

تُحَرِّكُ أَلْفَالَ وَتَوُطِرُهُ ثَلَاثُ إِشْكَالَاتٍ أَسَاسِيَّةٍ نَصُوعُهَا عَلَى النَّحْوِ الْآتِي: مَا مَبَانِي الدِّيمُقْرَاطِيَّةِ التَّشَارِكِيَّةِ
وَالدِّيمُقْرَاطِيَّةِ التَّدَاوُلِيَّةِ؟ وَهَلْ مِنْ الْمُسْتَطَاعِ تَعَزِيزُهُمَا بِنَعْصٍ؟ تَنْفَرُّ هَاتَيْنِ الْإِشْكَالِيَّتَيْنِ إِلَى أَسْئَلَةٍ قَرْعِيَّةٍ
تَأْتِي كَالثَّالِي: مَا الْمَسَالِكُ الْإِجْرَائِيَّةُ الَّتِي تُمَكِّنُ مِنْ تَجْسِيدِ مُشَارَكَةٍ سِيَاسِيَّةٍ مُعْتَبَرَةٍ فِي ظِلِّ مُخْتَلِفِ التَّحْدِيَّاتِ
الْمُعَاصِرَةِ؟ بِأَيِّ الْآيَاتِ يَنْبَغِي أَنْ تَقْتَرَنَ الدِّيمُقْرَاطِيَّةُ التَّدَاوُلِيَّةُ، لِتَضْمُنَ أَنْ يَكُونَ لِلنَّاتِجِ أَثَرٌ مُؤَسَّسَاتِيٌّ؟ مَا
شُرُوطُ الْمَسَاوَاةِ الْمَعْرِفِيَّةِ وَالرَّمْزِيَّةِ الَّتِي يَجِبُ تَوْفُّرُهَا لِتَمَكُّنِ مَجْمُوعَاتٍ هَامِشِيَّةٍ مِنَ الْمَشَارَكَةِ الْفَعْلِيَّةِ
بِإِنْصَافٍ؟ كَيْفَ يُمْكِنُ تَصْمِيمُ قَوَاعِدِ لِلْحَوَارِ تَضْمُنُ تَوَازُنًا بَيْنَ حُرِيَّةِ التَّعْبِيرِ وَالْفَعَالِيَّةِ وَمَنْعِ الْهَيْمَنَةِ
الرَّمْزِيَّةِ فِي فِضَاءَاتِ الْمَشَارَكَةِ؟

اسْتَنْدَنَّا فِي هَذَا الْمَقَالِ إِلَى الْمُنْهَجِ التَّحْلِيلِيِّ الَّذِي يَسَّرَ لَنَا تَحْلِيلَ مَقُولَاتٍ كُلِّ مِنَ النَّظَرِيَّتَيْنِ عَنِ الدِّيمُقْرَاطِيَّةِ
وَأَسْتَجَلَاءِ مَبَانِيهَا الْفَلَسَفِيَّةِ وَمُخْتَلِفِ أَبْعَادِهَا. ثُمَّ عَزَّزْنَاهُ بِمَنْهَجِ الْمَقَارَنَةِ، فَجَعَلْنَاهُ سَبِيلًا إِلَى بَيَانِ نِقَاطِ
الْإِلْتِقَاءِ وَالْإِخْتِلَافِ وَإِمْكَانَاتِ التَّكَامُلِ بَيْنَ الدِّيمُقْرَاطِيَّةِ التَّشَارِكِيَّةِ وَالدِّيمُقْرَاطِيَّةِ التَّدَاوُلِيَّةِ.

فَرَضِيَّاتُ هَذَا الْمَقَالِ نَكْتِفُهَا فِي اثْنَتَيْنِ: أَوَّلُهُمَا: أَنَّ الدِّيمُقْرَاطِيَّةَ التَّشَارِكِيَّةَ تَقُومُ عَلَى مَبَانٍ جَوْهَرِيَّةٍ، مِنْهَا الْمَسَاوَاةُ السِّيَاسِيَّةُ political equality وَالتَّمَكُّنُ الْمَحَلِّيَّ empowerment local وَالْعَدَالَةُ الْاجْتِمَاعِيَّةُ Social justice وَالشَّرْعِيَّةُ النَّاتِجَةُ مِنَ الْمَشَارَكَةِ legitimacy through participation ، بِقَدْرِ مَا يَتَوَقَّفُ تَجَسُّدُهَا عَلَى إِيجَادِ مَسَالِكٍ إِجْرَائِيَّةٍ procedural pathways، (مِثْلُ الْإِسْتِفْئَاتِ الشَّعْبِيَّةِ Popular Referenda وَالْإِسْتِشَارَاتِ الْعَامَّةِ Public Consultations وَتَوْفِيرِ التَّعْلِيمِ السِّيَاسِيِّ Political Education وَرَفْعِ الْوَعْيِ الْاجْتِمَاعِيِّ Social Awareness) وَرَبْطِ الْمَسَاهِمَاتِ الشَّعْبِيَّةِ popular inputs بِالْقَرَارَاتِ الْمَوْسَّسِيَّةِ، فِي إِطَارٍ قَانُونِيٍّ مَرِنٍ Flexible Legal Framework؛ فَإِذَا انْتَفَتْ هَذِهِ كُلُّهَا، فَلَا مَعْدِلَ لِلْمُشَارَكَةِ الدِّيمُقْرَاطِيَّةِ عَنْ أَنْ تَكُونَ مُشَارَكَةً زَائِفَةً (كَأُولِ بَاتَمَانِ Carole Pateman)، بَلْ لَا تَرْقَى فِي أَحْسَنِ أَحْوَالِهَا أَنْ تُسَمِّيَ مُشَارَكَةً رَمَزِيَّةً لَا غَيْرَ (شِيرِي أَرْنِسْتَاين Sherry Arnstein). ثَانِيَهُمَا: أَنَّ أَلْيَاتِ الدِّيمُقْرَاطِيَّةِ التَّدَاوُلِيَّةِ تُسَهِّمُ فِي تَجْوِيدِ نَوْعِيَّةِ الْمَشَارَكَةِ فِي صُنْعِ الْقَرَارِ وَتَحْسِينِ شَرْعِيَّةِ السِّيَاسَاتِ الْعَامَّةِ وَلَا يَتَحَقَّقُ ذَلِكَ غَايَةً التَّحَقُّقِ بِمَنَآئِ عَنْ رُبْطِ مُخْرَجَاتِ التَّدَاوُلِ بِالْمَسَارَاتِ الْإِدَارِيَّةِ وَالْقَانُونِيَّةِ، وَبِمَعْزِلٍ عَنْ بِنَاءِ قُدْرَاتِ الْمَوَاطِنِينَ مَعْرِفِيًّا وَلُغَوِيًّا لِلْفَنَاتِ الْمُسْتَضْعَفَةِ، وَتَصْمِيمِ قَوَاعِدِ إِجْرَائِيَّةٍ كَتَخْصِيصِ زَمَنِ مُنَسَاوٍ وَحَظَرِ خِطَابَاتِ الْإِقْصَاءِ، مِمَّا يُقَلِّلُ مِنْ هَيْمَنَةِ الْفَنَاتِ ذَاتِ رَأْسِ الْمَالِ الثَّقَافِيِّ الْعَالِيِّ.

يُمْكِنُنَا الْاِكْتِفَاءُ فِي هَذَا الْمَقَامِ بِذِكْرِ ثَلَاثِ دِرَاسَاتٍ مِنَ الْعَدِيدِ مِنَ الدِّرَاسَاتِ السَّابِقَةِ الَّتِي رَاجَعْنَاهَا، وَتَوَقَّفْنَا عِنْدَ مُحَاسِنِهَا وَنَوَاقِصِهَا، وَأَفْرَعْنَا الْوُسْعَ فِي تَخْطِي مَا تُعَانِيهِ مِنْ قُصُورٍ، وَهُمَا كَالآتِي:

أَوَّلًا: دِرَاسَةُ مَارِكِ وَارِنِ M.Warren الْمُعْتُونَةُ بِ: الدِّيمُقْرَاطِيَّةِ التَّشَارِكِيَّةِ وَالتَّدَاوُلِيَّةِ فِي الْمُجْتَمَعَاتِ الْمُعَقَّدَةِ

Participatory Deliberative Democracy in Complex Mass Societies

تُحَاوِلُ هَذِهِ الدِّرَاسَةُ الْبَحْثَ عَنِ النَّصُورِ الْمُنَاسِبِ لِـدِّيمُقْرَاطِيَّةِ تَشَارِكِيَّةِ تَدَاوُلِيَّةٍ فِي مُجْتَمَعَاتٍ ضَخْمَةٍ وَمُعَقَّدَةٍ، مُدَافِعًا عَنْ كَوْنِ الْإِخْتِصَارَاتِ السِّيَاسِيَّةِ مِثْلَ التَّمَثِيلِ وَتَفْسِيمِ الْعَمَلِ عَلَى الرُّغْمِ مِنْ ضَرُورَتِهَا، لَا يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُفْضِيَ إِلَى الْإِنْصِيَاعِ الْأَعْيى blind deference أَوْ التَّنَازُلِ الْمَطْلُوقِ عَنِ الْمَشَارَكَةِ.

ثَانِيًا: دِرَاسَةُ لُورَانْسِي بِيرِرِ Laurence Bherer الَّتِي تَحْمِلُ الْعُنْوَانَ الْآتِي: الْوَعُودُ الْغَامِضَةُ لِلدِّيمُقْرَاطِيَّةِ التَّشَارِكِيَّةِ

Les promesses ambiguës de la démocratie participative

يُعِيدُ هَذَا الْبَحْثُ تَشْكِيلَ عِلَاقَةِ الْمَوَاطِنِ وَمَجَالِسِ الْأَحْيَاءِ مَعَ الْحُكُومَةِ الْمَحَلِّيَّةِ فِي إِطَارِ الدِّيمُقْرَاطِيَّةِ التَّشَارِكِيَّةِ حَيْثُ الْاعْتِرَافُ بِالْمَعْرِفَةِ الْإِغْتِيَادِيَّةِ، كَمُكُونِ مَعْرِفٍ مُعْتَبَرٍ فِي صُنْعِ الْقَرَارِ الْعَامِّ، بِمَا يُقْلِصُ الْفَجْوَةَ بَيْنَ الْحُكَّامِ وَالْمُحْكُومِينَ، عَلَى مَا فِي هَذَا النَّوعِ مِنَ الدِّيمُقْرَاطِيَّةِ مِنْ غُمُوضٍ وَحُدُودٍ وَتَكَرَّرٍ لِمُعْضِلَةِ التَّمَايزِ وَالتَّمْيِيزِ الرَّمْزِيِّ وَالْاجْتِمَاعِيِّ.

ثَالِثًا: دِرَاسَةُ أَلْبَانِ بُوْفِيهِ Alban Bouvier الْمُعْتُونَةُ بِ: الدِّيمُقْرَاطِيَّةِ التَّدَاوُلِيَّةِ وَالدِّيمُقْرَاطِيَّةِ السِّجَالِيَّةِ، وَالدِّيمُقْرَاطِيَّةِ التَّشَارِكِيَّةِ

Démocratie délibérative, démocratie débattante, démocratie participative

يُعَالِجُ الْمَقَالُ التَّدَاخُلَ الْمَفَاهِييَّ بَيْنَ الْأَنْوَاعِ الثَّلَاثَةِ مِنَ الدِّيمُقْرَاطِيَّةِ، مُبَيِّنًا الْإِخْتِلَافَاتِ الْمَوْجُودَةَ بَيْنَ مَفْهُومِ التَّدَاوُلِ وَالْمَشَارَكَةِ، لَكِنْ مِنْ عُنْوِيهِ عَدَمَ تَقْدِيمِ الْيَاقَاتِ عَمَلِيَّةٍ وَتَطْبِيقِيَّةٍ تُجَسِّدُ تِلْكَ الْإِخْتِلَافَاتِ.

2. الدِّيمُقْرَاطِيَّةِ التَّشَارِكِيَّةِ بَيْنَ الْمَفْهُومِ النَّظَرِيِّ وَالْيَاقَاتِ التَّرْسِيخِ

تُعَدُّ الدِّيمُقْرَاطِيَّةِ التَّشَارِكِيَّةِ مَنَهِجًا مُبْتَكِرًا لِلْحُكْمِ، يَضَعُ الْمَوَاطِنِينَ فِي صَمِيمِ عَمَلِيَّةِ صُنْعِ الْقَرَارِ، مُوَفِّرًا بَدِيلًا لِلْأَشْكَالِ التَّقْلِيدِيَّةِ لِلْحُكْمِ الدِّيمُقْرَاطِيِّ، مُتِيحًا قَدْرًا أَكْبَرَ مِنَ الشَّفَافِيَّةِ وَالْمَسْأَلَةِ السِّيَاسِيَّةِ. لَكِنْ لَا يَنْبَغِي أَنْ يَغْرَبَ عَنَّا أَنَّ تَحْقِيقَ الدِّيمُقْرَاطِيَّةِ التَّشَارِكِيَّةِ لَا يَكُونُ إِلَّا مَعَ تَخْطِيطٍ دَقِيقٍ وَتَشْرِيعٍ سَلِيمٍ. فِي هَذَا السِّيَاقِ نَعْمَلُ عَلَى إِبَانَةِ مَفْهُومِ الدِّيمُقْرَاطِيَّةِ التَّشَارِكِيَّةِ وَالتَّشْرِيعَاتِ الْقَانُونِيَّةِ الْمُرَافِقَةِ الَّتِي لَوَلَاهَا يَظَلُّ هَذَا الصَّنْفُ مِنْ تَدْبِيرِ الْحُكْمِ مِنْ غَيْرِ مَا قَابِلِيَّةٍ مِثَالِيَّةٍ عَلَى التَّجْسِيدِ، دَعَا عَنَّا التَّوطينَ الرَّاسِخَ؛ إِذْ هِيَ تُضَمِّنُ الشَّفَافِيَّةَ، وَهِيَ تَتَجَلَّى الشَّرْعِيَّةُ أَيَّمَا تَجَلٍّ، وَهِيَ لَتُعْتَبَرُ تَشْرِيعَاتٍ قَانُونِيَّةً، سَوَاءً أَنْعَلَقَتْ بِالْمَبَادِئِ الْأَسَاسِيَّةِ لِلدِّيمُقْرَاطِيَّةِ، أَمْ بِالْأُسُسِ الدُّسْتُورِيَّةِ، فِي إِطَارِهَا تَنْتَظِمُ عَمَلِيَّاتُ الْمَشَارَكَةِ السِّيَاسِيَّةِ. فِي غُضُونِ هَذَا كُلِّهِ وَفِي أَعْقَابِهِ، تُقَامُ الْيَاقَاتُ لِتَعْصِيدِ تَمَظُّرَاتِ الدِّيمُقْرَاطِيَّةِ التَّشَارِكِيَّةِ، لِضَمَانِ احْتِرَامِ الْإِلْزَامَاتِ الْمُقْطُوعَةِ، فَضْلًا عَنْ حِفْظِ قَنَوَاتِ الْإِتِّصَالِ الْمُنْتَظَمَةِ بَيْنَ الْقَاعِدَةِ السِّيَاسِيَّةِ وَقِمَّتِهَا.

1.2 مَفْهُومُ الدِّيمُقْرَاطِيَّةِ التَّشَارِكِيَّةِ وَمَبَانِيهَا:

إِذَا كَانَ الْفِكْرُ السِّيَاسِيُّ الْحَدِيثُ قَدْ انْشَغَلَ طَوِيلًا بِنَبَاتِ خُدُودِ الدِّيمُقْرَاطِيَّةِ التَّمَثِيلِيَّةِ وَالْيَاقَاتِ الْإِجْرَائِيَّةِ، فَإِنَّ طَائِفَةً مِنْ كِبَارِ الْمُتَنَظِّرِينَ رَأَتْ أَنَّ هَذَا النُّمُودَجَ، عَلَى مَا فِيهِ مِنْ مَزَايَا التَّنْظِيمِ وَالتَّمَثِيلِ، قَدْ ضَاقَ عَنِ اسْتِيعَابِ الطَّاقَةِ الْفَعْلِيَّةِ لِلْمَشَارَكَةِ الشَّعْبِيَّةِ؛ إِذْ حَصَرَ الْفِعْلُ السِّيَاسِيُّ فِي لَحْظَةِ الْإِنْخِبَابِ الدَّوْرِيَّةِ، وَجَعَلَ الْمَوَاطِنَ كَأَنَّهُ شَاهِدٌ عَلَى الشَّيْءِ الْعَامِّ أَكْثَرَ مِنْهُ شَرِيكًَا فِي صِنَاعَتِهِ.

وَمِنْ هُنَا نَشَأَتِ الدَّعْوَةُ إِلَى مَا اصْطُلِحَ عَلَيْهِ بِالدِّيمُقْرَاطِيَّةِ التَّشَارِكِيَّةِ (démocratie participative)، بِوَصْفِهَا تَصَوُّرًا يَسْعَى إِلَى تَوْسِيعِ مَجَالِ الْفِعْلِ السِّيَاسِيِّ لِلْمَوَاطِنِينَ، بِحَيْثُ يَغْدُو اسْتِرَاكُهُمْ فِي إِدَارَةِ الشَّيْءِ الْعَامِّ اسْتِرَاكًا مُسْتَمِرًّا، لَا يَفْتَصِرُ عَلَى تَفْوِيضِ السُّلْطَةِ، بَلْ يَتَعَدَّاهُ إِلَى الْإِسْهَامِ فِي تَوْجِيهِهَا، وَمُرَاقَبَتِهَا، وَصِيَاغَةِ مَسَارِئِهَا.

وَقَدْ كَانَ فِي طَلَبَةِ الْمُتَنَظِّرِينَ لِهَذَا النَّصُورِ عَدَدٌ مِنْ أَغْلَامِ الْفِكْرِ السِّيَاسِيِّ الْمُعَاصِرِ، مِمَّنْ وَقَفُوا مُوقِفَ النَّاقِدِ لِلتَّمَثِيلِيَّةِ الضَّبِّقَةِ، وَالدَّاعِي إِلَى إِعَادَةِ الْإِعْتِبَارِ لِمَشَارَكَةِ الْمَوَاطِنِينَ فِي مُخْتَلِفِ مُسْتَوَاتِ الْقَرَارِ.

وَمِنْ أَجْزَلِ هَؤُلَاءِ كَارُول بَاتْمَان Carole Pateman الَّتِي بَيَّنَتْ فِي كِتَابِهَا «الْمَشَارَكَةُ وَالنَّظَرِيَّةُ الدِّيمُقْرَاطِيَّةُ» Theory Participation and Democratic أن الْمَشَارَكَةَ لَيْسَتْ مُجَرَّدَ وَسِيلَةٍ تَنْظِيمِيَّةٍ، بَلْ هِيَ مَدْرَسَةٌ

مَدِينَةُ تَنْشِئُ الْمَوَاطِنَ الْقَادِرَةَ عَلَى الْحُكْمِ الدَّائِي. وَكَذَلِكَ كُرُوفُودُ مَأكْفِرُسُون Crawford Macpherson الَّذِي نَقَدَ النَّزْعَةَ الْفَرْدَانِيَّةَ الْليبرالية، وَبَيَّنَ كَيْفَ يُمكنُ لِلدِّيمُقْرَاطِيَّةِ أَنْ تَتَحَوَّلَ مِنْ أَلِيَّةٍ تَنَافُسِيَّةٍ صِرَاعِيَّةٍ إِلَى فضاءٍ يُبَيِّحُ تَنْمِيَةَ الْقُدْرَاتِ الْإِنْسَانِيَّةِ بِالمُشارَكَةِ الْجَمَاعِيَّةِ.

وَيُضَافُ إِلَى هَذَيْنِ الْإِسْمَيْنِ بَنجَامِين بَارْبَر Benjamin Barber الَّذِي دَافَعَ عَنْ تَصَوُّرٍ سَمَّاهُ الدِّيمُقْرَاطِيَّةَ الْقَوِيَّةَ Strong Democracy، حَيْثُ لَا يَكُونُ الْمَوَاطِنُ مُسْتَهْلِكًا لِلسِّيَاسَةِ، بَلْ فَاعِلًا فِيهَا، وَمُشارِكًا فِي صُنْعِهَا عَلَى نَحْوٍ مُبَاشِرٍ وَمُسْتَمِرٍّ.

وَعَلَى هَذَا الْأَسَاسِ، لَمْ تَعُدِ الدِّيمُقْرَاطِيَّةُ التَّشَارِكِيَّةُ مُجَرَّدَ إِضَافَةٍ تَفْنِيَّةٍ إِلَى النَّمُودَجِ التَّمثِيلِيِّ، بَلْ غَدَتْ مَشْرُوعًا نَظَرِيًّا يَزُومُ إِعَادَةَ تَعْرِيفِ الْعَلَاقَةِ بَيْنَ الْمَوَاطِنِ وَالسُّلْطَةِ، بِحَيْثُ يَتَحَوَّلُ الْمَجَالُ السِّيَاسِيُّ إِلَى مِيدَانٍ لِلتَّداوُلِ الْمُشْتَرَكِ، وَتَعُدُّو الْمُشارَكَةُ فِيهِ شَرْطًا لِتَكُونِ الْإِرَادَةُ الْعَامَّةُ لَا مُجَرَّدَ إِجْرَاءٍ شَكْلِيٍّ لِإِقْرَارِهَا.

وَمِنْ هُنَا تَلْبَعُ أَهَمِّيَّةُ هَذَا الْمُبْحَثِ؛ إِذْ يَسْعَى إِلَى تَقْدِيمِ الْإِطَارِ النَّظَرِيِّ لِلدِّيمُقْرَاطِيَّةِ التَّشَارِكِيَّةِ، عَبرَ تَتَبُّعِ أَصُولِهَا الْفِكْرِيَّةِ، وَتَحْلِيلِ أَطْرُوحَاتِ أَبرزِ مُنْظَرِهَا، وَبَيَانِ الْأَسْئِيسِ الْفَلْسَافِيَّةِ الَّتِي يَقُومُ عَلَيْهَا هَذَا التَّصَوُّرُ، بِمَا يَسْمَحُ بِهِمْ مَوْقِعُهُ فِي تَطَوُّرِ الْفِكْرِ الدِّيمُقْرَاطِيِّ الْمُعَاَصِرِ.

إِنَّ مِنْ مَزَايَا الدِّيمُقْرَاطِيَّةِ التَّشَارِكِيَّةِ الْحَدِيثَةِ إِعْطَاءُ الْمَوَاطِنِ أَصْوَاثًا مُتَنَوِّعَةً وَمُخْتَلِفَةً مِنَ الْمُشارَكَةِ السِّيَاسِيَّةِ، ذَلِكَ مَا يَسْمَحُ لَهُمْ بِالتَّحَدُّثِ عَنِ الْمَصَالِحِ الْمُبَاشِرَةِ¹ الَّتِي لَا تَقُومُ حَيَاتِهِمْ إِلَّا بِهَا. لَكِنِ التَّعْبِيرُ عَنْ هَذِهِ الْأَصْوَاثِ وَالْمَصَالِحِ يَكُونُ فِي إِطَارِ إِجْرَاءَاتٍ مُتَنَوِّعَةٍ تَكْفُلُ لَهُمْ الْإِغْرَابَ، مِنْ تَلْقَاءِ أَنْفُسِهِمْ، أَوْ يُطْلَبُ مِنْهُمْ ذَلِكَ، عَمَّا يَأْمُلُونَهُ أَوْ يَكْرَهُونَهُ، مَا يَعْني إِشْرَاكَهُمْ فِي بِنَاءِ اسْتِجَابَةٍ جَمَاعِيَّةٍ لِمُشْكَلَةٍ مُعَيَّنَةٍ². وَمُقَادَ هَذَا النَّهْجِ التَّشَارِكِيِّ لِلدِّيمُقْرَاطِيَّةِ وَضَعَ الْمَوَاطِنُ فِي صَمِيمِ عَمَلِيَّةِ صُنْعِ الْقَرَارِ، مِنْ طَرِيقِ إِعَادَةِ تَوْزِيعِ السُّلْطَةِ³. كَمَا أَنَّهُ يُسَاعِدُ عَلَى تَطْوِيرِ ثَقَافَةٍ مَدْنِيَّةٍ، بِقَدْرِ مَا يَحْدُو عَلَى اِهْتِمَامِ الْمَوَاطِنِ بِالشُّؤُونِ الْعَامَّةِ.

مِنْ لَوَازِمِ الْعَدَالَةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ، حَسَبَ بَعْضِ الْمُنْظَرِينَ، أَنْ يَكُونُوا طَرَفًا فِي الْقَرَارَاتِ فِي الشُّؤُونِ الَّتِي لَهَا تَبِعَاتٌ عَلَى حَيَاتِهِمْ، إِذْ يُفْتَرَضُ أَنْ يَحْصُلَ الْأَفْرَادُ، فِي إِطَارِ الْإِنْصَافِ، عَلَى الْوَسَائِلِ الْلازِمَةِ لِلتَّأْثِيرِ عَلَى الْقَرَارَاتِ الَّتِي تُؤَثِّرُ فِي مَجْرِيَّاتِ دُنْيَاهُمْ. وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ رُوبَرْت دَال Robert Dahl: «يَجِبُ أَنْ يَكُونَ لِأَيِّ شَخْصٍ يَتَأَثَّرُ بِقَرَارَاتِ الْحُكُومَةِ الْحَقُّ فِي الْمُشارَكَةِ فِيهَا. لَا ضَرَائِبَ مِنْ دُونِ تَمَثِيلٍ»⁴. وَلَا نُجَانِبَ السَّدَادِ فِي عَدِّ النِّظَامِ الْحُكُومِيِّ التَّمثِيلِيِّ الَّذِي يَسْمَحُ لِلْمَوَاطِنِ بِالتَّأْثِيرِ فِي سَنِّ الْقَوَانِينِ الَّتِي تُؤَثِّرُ فِي حَيَاتِهِمْ أَحَدَ الاسْتِجَابَاتِ الْمَوْسَّسِيَّةِ الْمُمْكِنَةِ لِمَا يُصْطَلَحُ عَلَيْهِ مَبْدَأُ الْمَصَالِحِ الْمُتَأَثِّرَةِ.

يُفِيدُ هَذَا أَنَّ الدِّيمُقْرَاطِيَّةَ التَّشَارِكِيَّةَ تَقُومُ عَلَى بَعْضِ الْمُنْطَلَقَاتِ التَّأْسِيسِيَّةِ، مِنْهَا الْاِعْتِقَادُ فِي حَقِّ الْمَوَاطِنِ وَكِفَايَتِهِ فِي الْمُشارَكَةِ فِي الْمَجَالِسِ الْمُنْتَخَبَةِ لِلْجَمَاعَاتِ الْمَحَلِّيَّةِ وَصِيَاغَةِ الْمَشَارِعِ وَالسَّهَرِ عَلَيْهِمَا وَتَقْيِيمِهِمَا، وَهَذَا مُتَوَقَّفٌ عَلَى اِعْتِبَارِهِ غَضًّا فَعَالًا وَرَشِيدًا فِي الْجَمَاعَةِ الْمَدْنِيَّةِ، كَمَا أَنَّهُ لَا يَكُونُ مُمَكِّنًا مِنْ غَيْرِ مَا قُدْرَاتٍ مَدْنِيَّةٍ نُورِدُ مِنْهَا: قُدْرَةُ الْإِنْصَافِ وَالتَّفَاعُلِ وَالتَّوَاصُلِ وَحُسْنُ الْمَسْئُولِيَّةِ إِزاءَ مَجْرِيَّاتِ مَدِينَتِهِ بِخَاصَّةٍ وَبِلَدِهِ بِعَامَّةٍ. وَفِي هَذَا الْجَوِّ التَّشَارِكِيِّ تَتَرَسَّخُ قِيَمُ الْإِثَارِ وَالْاِخْتِلَافِ وَالتَّسَامُحِ، وَيَحْصُلُ التَّخَلِّيُ عَنِ الْاسْتِبْدَادِ بِعَمَلِيَّاتِ اتِّخَاذِ الْقَرَارِ. وَهَذَا النَّهْجُ التَّشَارِكِيُّ يُقَدِّمُ إِطَارًا لِلْبِدَائِلِ الْعَقْلَانِيَّةِ لِلْقَرَارَاتِ الْإِدَارِيَّةِ الَّتِي

تَتَّخِذُهَا الْجَمَاعَاتُ الْمَحَلِّيَّةُ عَلَى الصَّعِيدِ الْمَحَلِّيِّ، لِتَسِيرِ شُؤُونِ الْمَدِينَةِ، وَدَفْعِ عَجَلَةِ التَّنْمِيَةِ الَّتِي تَتَنَاغَمُ وَتَطْلُعَاتِ السَّكَّانَةِ. يَتَبَيَّنُ لَنَا أَنَّ الدِّيمُقْرَاطِيَّةَ التَّشَارِكِيَّةَ تَقُومُ فِي جَوْهَرِهَا عَلَى إِشْرَاكِ الْمَوَاطِنِينَ فِي إِطَارِ مُجْتَمَعَاتٍ صَغِيرَةٍ عَلَى نَحْوِ يَتَسِمُ بِالتَّفَاعُلِ الْمَبَاشِرِ وَالنَّشِيطِ فِي الشُّؤُونِ الَّتِي لَهَا تَأْثِيرٌ مُبَاشِرٌ عَلَى حَيَاتِهِمْ بَدَلًا مِنَ الْاعْتِمَادِ الْكَلِيِّ عَلَى الْأَعْضَاءِ الْمُنْتَخَبِينَ.

لَا تُبَاشِرُ الدِّيمُقْرَاطِيَّةُ التَّشَارِكِيَّةُ نَشَاطَهَا بِنَجَاحٍ إِلَّا بِتَوَسُّلِ الْأَطْرِ الْمُؤَسَّسَاتِيَّةِ الَّتِي تَسْمَحُ بِأَكْبَرِ قَدْرِ مُمَكِنٍ مِنَ التَّفَاعُلِ وَالتَّعَاوُدِ بَيْنَ مُخْتَلِفِ الْمُؤَسَّسَاتِ وَالْمَصَالِحِ الْعُمُومِيَّةِ وَالْجَمْعِيَّاتِ وَالْمُنْتَظَمَاتِ غَيْرِ الْحُكُومِيَّةِ وَالْمَبَادِرَاتِ الْفَرْدِيَّةِ، وَهَذَا مَا يُسَهِّمُ فِي بِنَاءِ دَوْلَةٍ الْحَقِّ وَالْقَانُونِ حَيْثُ الْمَوَاطِنُونَ يَنْعَمُونَ بِظُرُوفٍ مَدَنِيَّةٍ أَفْضَلَ تَتِمَّاشِي فِيهِ الْحُقُوقُ مَعَ الْوَاجِبَاتِ، مَا يُمَكِّنُهُم مِنَ الْإِحْسَاسِ بِالْأَمْنِ وَالْكَرَامَةِ وَالْمَسَاوَةِ وَالْحُرِّيَّةِ وَالْإِنْصَافِ. مِنَ الْحَقِّ أَنْ يُقَالَ بِأَنَّ الدِّيمُقْرَاطِيَّةَ التَّشَارِكِيَّةَ، فَوْقَ كَوْنِهَا قِيَمَةً مُفِيدَةً، لَمَّا يَنْجُمُ مِنْهَا مِنْ عَدَالَةٍ اجْتِمَاعِيَّةٍ وَشَرْعِيَّةٍ سِيَاسِيَّةٍ وَقَعَالِيَّةٍ الْإِدَارَةِ الْعَامَّةِ⁵، قِيَمَةً فِي ذَاتِهَا⁶. لَكِنْ كُلُّ هَذَا يَشْتَرِطُ تَكَافُؤَ الْفُرْصِ، حَتَّى يَتِمَكَّنُوا مِنْ اتِّخَاذِ خِيَارَاتٍ مُسْتَنِيرَةٍ فِي الْمُنَافَسَةِ السِّيَاسِيَّةِ الْعَادِلَةِ، مَا يَضْمَنُ الظُّرُوفَ الْمَادِيَّةَ وَالْاجْتِمَاعِيَّةَ الْلازِمَةَ لِتَنْمِيَّةٍ مُسْتَدِيمَةٍ لِلْأَفْرَادِ⁷.

وَلَمْ يَكُنْ لِلْأَحْزَابِ السِّيَاسِيَّةِ مِنْ حَلٍّ لِلْخُرُوجِ مِنْ فِقْدَانِ شَعْبِيَّتِهَا وَشَرْعِيَّتِهَا إِلَّا أَنْ تَسْلُكَ بِدَوْرِهَا مَسْلَكَ الدِّيمُقْرَاطِيَّةِ التَّشَارِكِيَّةِ الَّتِي تَقْتَادُهَا إِلَى انْفِتَاحِ تَوَاصُلِيٍّ عَلَى مُخْتَلِفِ الْفَنَاتِ الشَّعْبِيَّةِ، وَتَوَسُّلِ الْحَوَارِ الْمُتَكَافِي فِي الْفَضَاءِ الْعَامِّ. إِنَّ مَا يَجْعَلُ الدِّيمُقْرَاطِيَّةَ التَّشَارِكِيَّةَ أَكْثَرَ دِينَامِيكِيَّةً وَنَجَاعَةً مِنَ النُّسَخَةِ الْقَدِيمَةِ مِنَ الدِّيمُقْرَاطِيَّةِ هُوَ خَصَائِصُهَا الْمُحَفَّزَةُ، فَلَيْتُنْ كَانَتِ الدِّيمُقْرَاطِيَّةُ الْكَلَّاسِيكِيَّةُ تَعْتَمِدُ تَنْظِيمًا مِيكَانِيكِيًّا مُنْغَلَقًا، وَتَقُومُ عَلَى إِجْرَاءَاتٍ ثَابِتَةٍ وَمُتَصَلِبَةٍ وَتَصَوُّرٍ خُضُوعِيٍّ لِلْمَوَاطِنِينَ، بِوَصْفِهِمْ أَدَوَاتٍ لِتَنْفِيذِ الْقَرَارَاتِ، فَإِنَّ الدِّيمُقْرَاطِيَّةَ التَّشَارِكِيَّةَ تَسْتَنْدُ إِلَى فَاعِلِينَ كَثُرَ، مَا يَمْنَعُ تَمَرُّكَ السُّلْطَةِ فِي طَرَفٍ دُونَ آخَرَ، وَتَقُومُ أَيْضًا عَلَى إِجْرَاءَاتٍ مَرِنَةٍ وَمِطَوَاعِيَّةٍ وَعَلَى تَصَوُّرٍ لِلْمَوَاطِنِينَ، بِاعْتِبَارِهِمْ خَالِقِينَ لِلْفَضَاءِ الْمَحَلِّيِّ وَأَفْرَادًا جَدِيرِينَ بِالْحَوَارِ، لِلْخُرُوجِ بِأَفْضَلِ الْحُلُولِ الْمُمْكِنَةِ لِلْأَزْمَاتِ بِمُتَنَوِّعِ صُورِهَا.

يَبْدُو أَنَّ النِّهَجَ التَّشَارِكِيَّ هُوَ النِّهَجُ الْأَنْسَبُ لِلتَّعَامُلِ مَعَ الْمَشْكَلاتِ، بِأَقْصَى قَدْرِ مِنَ الْفَعَالِيَّةِ. ذَلِكَ أَنَّهُ يَنْطَوِي عَلَى سِلْسَلَةٍ كَامِلَةٍ مِنْ آلياتِ التَّشَاوُرِ الْاجْتِمَاعِيِّ عَلَى الصَّعِيدِ الْمَحَلِّيِّ: التَّخْطِيطُ الْحَضْرِيُّ أَوْ التَّخْطِيطُ الْإِقْلِيمِيُّ أَوْ مَشَارِيعُ التَّنْمِيَةِ الْمَحَلِّيَّةِ⁸.

2.2 كَارُولُ بَاتْمَانُ وَالْمُجْتَمَعُ التَّشَارِكِيُّ: مِنَ الْاِخْتِرَالِ إِلَى الْمَشَارَكَةِ الْحَيَّةِ

لَمَّا طَلَعَتْ سَنَةُ 1970 أَطْلَعَتِ الْمُفَكِّرَةُ كَارُولُ بَاتْمَانُ Carole Pateman عَلَى عَالَمِ الْفِكْرِ السِّيَاسِيِّ بِكِتَابِهَا «الْمُشَارَكَةُ وَالنَّظَرِيَّةُ الدِّيمُقْرَاطِيَّةُ»، فَكَأَنَّهَا هَبَّتْ رِيحَ تَزِيلٍ غُبَارًا قَدِيمًا تَرَكَمَ عَلَى صُورِ الدِّيمُقْرَاطِيَّةِ فِي عُقُولِ النَّاسِ. فَقَدْ فَتَحَتْ الْكِتَابَ بِكَلِمَاتٍ حَادَّةٍ تَنْقُدُ فِيهَا تِلْكَ النَّظَرِيَّاتِ الَّتِي اسْتَبَدَّتْ يَوْمَئِذٍ بِمَيِّدَانِ عِلْمِ السِّيَاسَةِ، وَاسْتَوَلَتْ عَلَى أَذْهَانِ دَارِسِيهِ اسْتِيلَاءً لَا يَتْرُكُ لِلشَّكِّ مَجَالًا.

وَكَانَتْ هَذِهِ النَّظَرِيَّاتُ قَدْ اسْتَقَتَّتْ رُوحَهَا مِنَ التَّصَوُّرِ الَّذِي وَضَعَهُ جُوزَيْفُ شُومْبِيَتِر Joseph Schumpeter لِلدِّيمُقْرَاطِيَّةِ، وَهُوَ التَّصَوُّرُ الَّذِي سَارَتْ عَلَيْهِ طَائِفَةٌ مِنَ الْمَذَاهِبِ الَّتِي سَمِيَتْ فِي الْأَدَبِ السِّيَاسِيِّ بِالنَّظَرِيَّاتِ التَّعَدُّدِيَّةِ. غَيْرَ أَنَّ بَاتْمَانَ لَمْ تَرَفِ فِي هَذَا التَّصَوُّرِ إِلَّا تَضْيِيقًا لِمَعْنَى الْمُشَارَكَةِ الشَّعْبِيَّةِ، وَحَصْرًا لِدَوْرِ الْمَوَاطِنِ فِي عَمَلٍ يَسِيرُ هُوَ اخْتِيَارُ نُخْبَةٍ حَاكِمَةٍ، يُظَنُّ أَنَّهَا أَقْدَرُ عَلَى التَّفَكُّيرِ عَنْهُ، وَأَوَّلَى بِتَدْيِيرِ شُؤُونِهِ وَتَرْجَمَةِ مَصَالِحِهِ.

وَلَمْ يَنْشَأْ هَذَا التَّصَوُّرُ فِي فِكْرِ الْحَدَاثَةِ السِّيَاسِيَّةِ عَفْوًا وَلَا اتِّفَاقًا، بَلْ وُلِدَ فِي ظُرُوفٍ تَارِيخِيَّةٍ كَانَتْ النُّفُوسُ فِيهَا مُرْتَجِفَةً مِنْ شَبَحِ الزَّرْعَةِ الشُّمُولِيَّةِ totalitarianisme الَّتِي خَيَّمَتْ عَلَى أَقْفِ الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ. فَخَشِيَ كَثِيرٌ مِنَ الْمُنْظَرِينَ أَنَّ تَنْقَلِبَ الْمُشَارَكَةِ الشَّعْبِيَّةِ الْوَاسِعَةِ إِلَى فَوْضَى مُهَيَّئِدِ اسْتِفْرَازِ النِّظَامِ الدِّيمُقْرَاطِيِّ. وَزَادَ هَذَا الْمَيْلَ قُوَّةً ذَلِكَ الْفَيْضُ مِنَ الدِّرَاسَاتِ التَّجْرِبِيَّةِ الَّتِي رَافَقَ نُشُوءَ عِلْمِ الْاجْتِمَاعِ السِّيَاسِيِّ فِي أَعْقَابِ الْحَرْبِ الْعَالَمِيَّةِ الثَّانِيَةِ.

وَقَدْ حَمَلَ لَوَاءَ هَذَا التَّوَجُّهِ جَمْعٌ مِنْ أَعْلَامِ اللَّيْبَرَالِيَّةِ السِّيَاسِيَّةِ، مِنْهُمْ بَرْنَارْدُ بِيرْلَسُون Bernard Berelson وَرُوبَرْتُ دَال Robert Dahl وَجُوفَانِي سَارْتُورِي Giovanni Sartori. وَقَدْ زَعَمُوا أَنَّهُمْ يَصِفُونَ الْوَاقِعَ كَمَا هُوَ بَعِيْنٌ وَضْعِيَّةٌ لَا تَتَدَخَّلُ فِيهَا الْأَحْكَامُ الْمُعْيَارِيَّةُ، غَيْرَ أَنَّ بَاتْمَانَ رَأَتْ فِي هَذَا الْوَصْفِ نَفْسَهُ نَوْعًا مِنَ التَّوْجِيهِ الْخَفِيِّ، إِذْ يَتَسَلَّلُ مِنْ وَرَاءِ لِبَاسِ الْحَيَادِ مَذْهَبٌ مُعْيَارِيٌّ يَقْلُصُ مَجَالَ الدِّيمُقْرَاطِيَّةِ وَيَحْجُبُ أَفَاقَهَا الْأَرْحَبَ. فَكَانَتْ غَايَتُهَا أَنْ تُعِيدَ إِلَى الدِّيمُقْرَاطِيَّةِ مَعْنَاهَا الْأَصِيلَ: مَعْنَى الْمُشَارَكَةِ الْحَيَّةِ الَّتِي يَكُونُ فِيهَا النَّاسُ شُرَكَاءَ حَقًّا فِي صُنْعِ قَرَارِهِمْ، لَا مُجَرَّدَ نَاحِيَيْنِ يَتَعَاقَبُونَ عَلَى صِنَادِيقِ الْاِقْتِرَاعِ. وَلِهَذَا كَتَبَتْ بَاتْمَانَ قَائِلَةً: «إِنَّ النَّظَرِيَّةَ الْمُعَاَصِرَةَ لِلدِّيمُقْرَاطِيَّةِ لَا تَكْتَفِي بِوَصْفِ كَيْفِيَّةِ عَمَلِ بَعْضِ الْأَنْظُمَةِ السِّيَاسِيَّةِ، بَلْ تَفْتَرِضُ أَيْضًا أَنَّ هَذَا النَّمَطَ مِنَ الْأَنْظُمَةِ هُوَ النَّمَطُ الَّذِي يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَقْدِرَهُ وَنُعْلِي قِيَمَتَهُ».⁹

وَلَكِنِّي تَزِيلُ كَارُولُ بَاتْمَانَ هَالَةَ الْقَدَاسَةِ الَّتِي أُلْصِقَتْ بِالنَّظَرِيَّاتِ السِّيَاسِيَّةِ السَّائِدَةِ آنَذَاكَ، قَدَمْتُ نَمُودَجًا بَدِيلًا لِلدِّيمُقْرَاطِيَّةِ، يَسْتَمِدُّ إِلَهَامَهُ مِنْ تَقَالِيدِ فِكْرِيَّةٍ سَابِقَةٍ عَلَى شُومْبِيَتِر. وَوَجَدَتْ بَاتْمَانَ مَصَادِرَ هَذَا الْإِلَهَامِ فِي أَعْمَالِ جَانِ جَاك رُوسُو Jean-Jacques Rousseau وَجُونِ سْتُوَارْتِ مِل John Stuart Mill وَجُورْجِ دُوغْلَاسِ كُول George Douglas H. Cole. وَرَأَتْ بَاتْمَانَ أَنَّ مِيزَةَ هَذِهِ النَّظَرِيَّاتِ، الَّتِي تُسَمِّيهَا النَّظَرِيَّاتُ التَّشَارِكِيَّةَ théories participatives، تَكْمُنُ فِي قُدْرَتِهَا عَلَى «تَوْجِيهِ انْتِبَاهِنَا إِلَى الْعِلَاقَةِ الْمُتَبَادَلَةِ الَّتِي تُرْبِطُ بَيْنَ الْأَفْرَادِ وَبَيْنَ بَنَى السُّلْطَةِ فِي الْمَوْسَّسَاتِ الَّتِي يَتَفَاعَلُونَ فِي دَاخِلِهَا».¹⁰

وَمَعْنَى ذَلِكَ أَنَّ طَبَائِعَ الْأَفْرَادِ وَمَلَكَاتِهِمُ النَّفْسِيَّةَ لَا تَنْفَصِلُ عَنِ الْكَيْفِيَّةِ الَّتِي يُمَارَسُ بِهَا السُّلْطَانُ فِي الْمَجْتَمَعِ. فَحَيْثُمَا يُفْضَى الْمَوَاطِنُونَ عَنِ الْمُشَارَكَةِ يَتَوَلَّدُ فِيهِمْ شَيْءٌ مِنَ الْخُمُودِ وَالْاِمْتِنَالَةِ، وَمِنْ ثَمَّ لَا يَنْبَغِي أَنْ يُفْهَمَ فُتُورُ الْمَوَاطِنِينَ عَنِ الشَّأْنِ الْعَامِّ كَذَرِيعَةٍ لِسَيْطَرَةِ نُخْبَةٍ حَاكِمَةٍ، بَلْ هُوَ - عَلَى الْعَكْسِ - أْخْطَرُ النَّتَائِجِ الَّتِي تُفْضِي إِلَيْهَا هَيْمَنَةُ تِلْكَ النُّخْبَةِ. وَلِذَلِكَ تُقَرَّرُ بَاتْمَانَ أَنَّ: «نَظَرِيَّةَ الدِّيمُقْرَاطِيَّةِ التَّشَارِكِيَّةِ تَرَى أَنَّ تَجْرِبَةَ الْمُشَارَكَةِ تَكْسِبُ الْأَفْرَادَ - عَلَى نَحْوِ مَا - قُدْرَةً نَفْسِيَّةً أَفْضَلَ عَلَى الْإِنْخِرَاطِ فِي مُشَارَكَاتٍ أُخْرَى

فِي الْمُسْتَقْبَلِ».¹¹

وَهَكَذَا تَتَجَلَّى الْمُشَارَكَةُ فِي هَذَا التَّصَوُّرِ بِاعْتِبَارِهَا مَدْرَسَةً أَخْلَاقِيَّةً وَمَدَنِيَّةً تُخْرِجُ الْإِنْسَانَ مِنْ ضَبْقِ أَنْيَّتِهِ، وَتُوسِّعُ أَفْقَ تَطَلُّعَاتِهِ، عَلَى النَّحْوِ الَّذِي أَشَارَ إِلَيْهِ سَابِقًا جُون سْتُوَارْت مِلَّ John Stuart Mill وَتُنَبِّئِي فِي النُّفُوسِ وَهُوَ مَا أَشَارَ إِلَيْهِ جُورْجْ دُوغْلَاسْ كُول George Douglas Cole بِمَا سَمَّاهُ «الشَّخْصِيَّةَ غَيْرَ الْخَانِعَةِ» non-servile character ، أَيْ الشَّخْصِيَّةِ الَّتِي تَتَّسِمُ بِثِقَّةٍ أَعْمَقَ بِالنَّفْسِ وَقُدْرَةٍ أَكْبَرَ عَلَى الْمُبَادَرَةِ وَالْمُسَاهَمَةِ. وَمِنْ هُنَا يَخْلُصُ هَؤُلَاءِ الْمُفَكِّرُونَ إِلَى حَقِيقَةٍ بَسِيطَةٍ فِي لَفْظِهَا وَعَمِيقَةٍ فِي دَلَالَتِهَا، وَهِيَ أَنَّ : الْإِنْسَانَ إِنَّمَا يَتَعَلَّمُ الْمُشَارَكَةَ بِالْمُشَارَكَةِ ، وَعَلَى هَذَا الْأَسَاسِ، تَدْعُونَا بِاتِمَانِ Pateman إِلَى إِحْيَاءِ طُمُوحِ هَؤُلَاءِ الْمُفَكِّرِينَ، الَّذِينَ أَرَادُوا- فِي جَوْهَرِ مَشْرُوعِهِمْ - «إِنْتِاجَ مُوَاطَنَةٍ نَشِطَةٍ وَمُتَعَلِّمَةٍ» .¹²

وَلَا تَرَى بِاتِمَانٍ أَنَّ تَعَلُّمَ الْمُشَارَكَةِ يَنْبَغِي أَنْ يَنْحَصِرَ فِي إِطَارِ الْحُكُومَةِ الْوِطَنِيَّةِ وَمُؤَسَّسَاتِهَا الرَّسْمِيَّةِ، بَلْ تَرَى أَنَّهُ يُمَكِّنُ أَنْ يَتَحَقَّقَ أَيْضًا فِي مَجَالَاتٍ اجْتِمَاعِيَّةٍ أُخْرَى، خَاصَّةً فِي مَا سَمَّاهُ «الدِيمُقْرَاطِيَّةِ الصَّنَاعِيَّةِ» démocratie industrielle، حَيْثُ يَتَعَلَّمُ الْعَمَّالُ فُنُونِ الْإِدَارَةِ الدَّائِيَّةِ مِنْ طَرِيقِ الْمَجَالِسِ الْعَمَالِيَّةِ.

وَتَلْمَحُ بِاتِمَانٍ - وَهِيَ تَسْتَبِقُ بَعْضَ أَعْمَالِهَا الْأَحِقَّةِ - إِلَى أَنَّ الْأُسْرَةَ نَفْسَهَا فِي مُسْتَطَاعِهَا أَنْ تَكُونَ مَيْدَانًا لَتَعَلُّمِ الْمُشَارَكَةِ، إِذْ إِنَّ تَعْوِيدَ الْأَفْرَادِ عَلَى تَقَاسُمِ السُّلْطَةِ وَإِتِّخَاذِ الْقَرَارِ فِي حَيَاتِهِمِ الْيَوْمِيَّةِ يُسَهِّلُ فِي تَكْوِينِ شَخْصِيَّةٍ مَدَنِيَّةٍ أَكْثَرُ نَضْجًا. وَهَكَذَا، فَإِنَّ إِدْخَالَ الْمُشَارَكَةِ تَدْرِيجِيًّا فِي هَذِهِ «الْمَجَالَاتِ الْبَدِيلَةِ» فِي وَسْعِهِ فِي نَظَرِ بِاتِمَانِ Pateman أَنْ يُحْدِثَ تَغْيِيرًا عَمِيقًا فِي السِّيَاقِ الْاجْتِمَاعِيِّ، فَيُؤَدِّي عَلَى مَرَاوِجٍ إِلَى نُشُوءِ «الْمُجْتَمَعِ التَّشَارِكِيِّ» société participative، وَهُوَ الْمُجْتَمَعُ الَّذِي يَتَعَلَّمُ فِيهِ الْأَفْرَادُ أَلَّا يَنْظُرُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ كَأَفْرَادٍ خُصُوصِيَّيْنِ فَقَطْ، بَلْ أَيْضًا بِوَصْفِهِمْ «مُوَاطِنِينَ عُمُومِيِّينَ مُتَعَلِّمِينَ» .¹³

3.2 السِّيَاسَةُ وَالْمُجْتَمَعُ عِنْدَ مَآكَفِرْسُونِ: مِنْ نَقْدِ الزَّرْعَةِ «الْفَرْدَانِيَّةِ الْإِمْتِلَاقِيَّةِ» إِلَى الذَّبِّ عَنِ دِيمُقْرَاطِيَّةِ الْمُشَارَكَةِ

يُعَدُّ كَرُوفُورْدُ مَآكَفِرْسُونِ Crawford Macpherson مِنْ أَهْمِّ الْمُفَكِّرِينَ الَّذِينَ وَجَّهُوا نَقْدًا عَمِيقًا لِلتَّقْلِيدِ اللَّيْبِرَالِيِّ الْحَدِيثِ. وَقَدْ اشتهَرَ خُصُوصًا بِقِرَاءَتِهِ النَّاقِدَةِ لِلْفِكْرِ اللَّيْبِرَالِيِّ مِنْ توماس هوبز Thomas Hobbes إِلَى جُون لُوكْ John Locke ، حَيْثُ رَأَى فِي هَذَا التَّقْلِيدِ تَجَلُّيًا لِمَا سَمَّاهُ بِالزَّرْعَةِ «الْفَرْدَانِيَّةِ الْإِمْتِلَاقِيَّةِ» possessive individualism . وَقَدْ مَضَى مَآكَفِرْسُونُ فِي نَقْدِهِ لِللِّبَرَالِيَّةِ السِّيَاسِيَّةِ خُطْوَةً أُبْعَدَ فِي

كِتَابِهِ الْمُخْتَصَرِ الْمَعْنُونُ : حَيَاةُ الدِيمُقْرَاطِيَّةِ اللَّيْبِرَالِيَّةِ وَأَزْمَنَتُهَا The Life and Times of Liberal Democracy الصَّادِرِ سَنَةَ 1977، حَيْثُ قَدَّمَ فِيهِ نَقْدًا حَادًّا لِمَا يُسَمَّى «الدِيمُقْرَاطِيَّةِ اللَّيْبِرَالِيَّةِ». فَهُوَ يَرَى أَنَّ ثَمَّةَ تَنَاقُضٍ بَنِيوِيٍّ بَيْنَ الدِيمُقْرَاطِيَّةِ، الَّتِي تَفْتَضِي فِي صُورَتِهَا الْخَالِصَةِ اِنْتِفَاءَ الْفَوَارِقِ الطَّبَقِيَّةِ، وَاللِّبَرَالِيَّةِ الَّتِي تَقُومُ أَسَاسًا عَلَى مَبْدَأِ الْمِلْكِيَّةِ. وَمِنْ ثَمَّ، فَإِنَّ الْجَمْعَ بَيْنَهُمَا لَمْ يَتَحَقَّقْ إِلَّا عَلَى حِسَابِ الدِيمُقْرَاطِيَّةِ نَفْسِهَا. وَفِي هَذَا السِّيَاقِ يَكْتُبُ مَآكَفِرْسُونُ: «لَمْ يُصْبِحْ مَفْهُومُ الدِيمُقْرَاطِيَّةِ اللَّيْبِرَالِيَّةِ مُمَكِّنًا

إِلَّا حِينَ وَجَدَ الْمُنْظَرُونَ أَسْبَابًا وَجِهَةً لِلْإِعْتِقَادِ بِأَنَّ مَبْدَأَ "رَجُلٌ وَاحِدٌ، صَوْتُ وَاحِدٍ" لَنْ يَكُونَ خَطَرًا لَا عَلَى الْمِلْكِيَّةِ وَلَا عَلَى دَوَامِ الْمُجْتَمَعَاتِ الطَّبَقِيَّةِ»¹⁴

وَهَذَا الْمَعْنَى يَعْرِضُ مَآكِفِرُسُونَ تَارِيخَ الدِّيْمُقْرَاطِيَّةِ الْحَدِيثَةِ عَلَى أَنَّهُ تَارِيخٌ تَدَجِيهِيهَا بِوَاسِطَةِ اللَّيْبِرَالِيَّةِ، وَذَلِكَ بِتَوَسُّلِ جُمْلَةٍ مِنَ الْإِلَيَّاتِ الْمُؤَسَّسَاتِيَّةِ. فَمِنْ ذَلِكَ الْمَبْدَأِ الْإِنْخَابِيُّ الَّذِي كَانَ الْقُدَمَاءُ يَعْذُونُهُ، عَنْ حَقِّ، ذَا طَانِعِ أَرِسْتُقْرَاطِيٍّ، لِأَنَّهُ يُغْذِي لَامْبَالَةَ الْأَكْثَرِيَّةِ وَيَنْقُلُ السُّلْطَةَ الْفَعْلِيَّةَ إِلَى أَقَلِّيَّةٍ حَاكِمَةٍ. وَمِنْهَا أَيْضًا نِظَامُ الْأَحْزَابِ السِّيَاسِيَّةِ الَّذِي كَانَ جَانِ جَاكِ رُوسُو قَدْ نَبَّهَ إِلَى مَخَاطِرِهِ مُبَكِّرًا، لِأَنَّهُ يَحْدُو الْمُتَمَلِّينَ عَلَى تَغْلِيْبِ وَلَاغِيهِمْ لِحُطُوطِ أَحْزَابِهِمْ عَلَى الْمَصَالِحِ الَّتِي يُفْتَرَضُ أَنْ يُمَثِّلُوهَا. وَهَكَذَا يَرَى مَآكِفِرُسُونَ أَنَّ فَسَادَ الدِّيْمُقْرَاطِيَّةِ بِاللَّيْبِرَالِيَّةِ قَدْ بَلَغَ حَدًّا لَا يَكْفِي مَعَهُ مُجَرَّدُ تَغْيِيمِ حَقِّ الْإِفْتِرَاعِ.

وَلِإِتْبَاتِ ذَلِكَ يَسْتَعْرِضُ مَآكِفِرُسُونَ الْعَدِيدَ مِنْ نَمَازِجِ نَظَرِيَّةِ سَعَتْ إِلَى التَّوْفِيقِ بَيْنَ الدِّيْمُقْرَاطِيَّةِ وَاللَّيْبِرَالِيَّةِ. فَأَوَّلُهَا مَا يَسْمِيهِ «دِيْمُقْرَاطِيَّةَ الْحِمَايَةِ protective democracy» الَّتِي دَافَعَ عَنْهَا جِيْمْسُ مِلْ James Mill وَجِيرِيمِي بَنْثَامِ Jeremy Bentham ، وَهِيَ تَنْظُرُ إِلَى الدِّيْمُقْرَاطِيَّةِ لَا عَلَى أَنَّهَا قِيَمَةٌ أَخْلَاقِيَّةٌ بَلْ بِاعْتِبَارِهَا وَسِيلَةً لِحِمَايَةِ الْمَحْكُومِينَ مِنْ تَعَسُّفِ الْحُكَّامِ. وَيُعَلِّقُ مَآكِفِرُسُونَ قَائِلًا: «لَيْسَ فِي هَذَا النَّمُودَجِ أَيُّ حَمَاسٍ لِلدِّيْمُقْرَاطِيَّةِ، وَلَا أَيَّةُ فِكْرَةٍ عَنْ كَوْنِهَا قُوَّةً لِلتَّحْوِيلِ الْأَخْلَاقِيِّ؛ إِنَّمَا مُجَرَّدُ وَسِيلَةٍ مَنطِقِيَّةٍ لِنَتْنِظِيمِ حُكْمِ أَفْرَادٍ أَنَانِيِّينَ مُتَنَازِعِينَ»¹⁵

أَمَّا النَّمُودَجُ الثَّانِي فَهُوَ «دِيْمُقْرَاطِيَّةُ الْأَزْدَهَارِ developmental democracy» الَّتِي تَبَنَّاها جُونِ سْتُوَارْتِ مِلْ، وَمَقَادُهَا النَّظَرُ إِلَى الدِّيْمُقْرَاطِيَّةِ عَلَى أَنَّهَا النِّظَامُ الْأَفْضَلُ لِلتَّنْمِيَةِ قُدْرَاتِ الْإِنْسَانِ وَتَحْقِيقِ «تَحْسِينِ الْبَشَرِيَّةِ»¹⁶. غَيْرَ أَنَّ مَآكِفِرُسُونَ يَأْخُذُ عَلَى هَذَا النَّمُودَجِ أَنَّهُ لَمْ يَقْطَعْ قَطْعًا كَافِيًا مَعَ اللَّيْبِرَالِيَّةِ وَمَعَ الْبِنْيَةِ الطَّبَقِيَّةِ لِلْمُجْتَمَعِ. فَقَدْ قَبِلَ مِلْ مَثَلًا بِمَبْدَأِ التَّصَوُّبِ التَّعَدُّدِيِّ الَّذِي يَمْنَحُ أَصْوَانًا أَكْثَرَ لِلطَّبَقَاتِ الْمُتَعَلِّمَةِ. وَيَرَى مَآكِفِرُسُونَ أَنَّ نِظَامَ الْأَحْزَابِ السِّيَاسِيَّةِ كَانَ الْأَدَاةَ الَّتِي سَمَحَتْ فِي التَّارِيخِ الْحَدِيثِ بِالتَّوْفِيقِ بَيْنَ الْإِفْتِرَاعِ الْعَامِّ وَاسْتِمْرَارِ الْمُجْتَمَعِ غَيْرِ الْمُتَسَاوِي، لِأَنَّهُ يَخَفِّفُ مِنْ حِدَّةِ الصِّرَاعَاتِ وَيُضْعِفُ مَسْئُولِيَّةَ الْحُكُومَةِ أَمَامَ النََّاخِبِينَ¹⁷.

وَبَعْدَ ذَلِكَ يَعْرِضُ مَآكِفِرُسُونَ نَمُودَجًا ثَالِثًا أَكْثَرُ «وَاقِعِيَّةً» هُوَ نَمُودَجُ «دِيْمُقْرَاطِيَّةِ التَّوَاظُنِ» equilibrium democracy الَّذِي صَاغَهُ جُوزِيْفُ شُومْبِيْتِرِ Joseph Schumpeter. وَفِي هَذَا التَّصَوُّرِ لَا تَقْهَمُ الدِّيْمُقْرَاطِيَّةُ إِلَّا بِوَصْفِهَا «أَلِيَّةً بَسِيطَةً لِاخْتِيَارِ الْحُكُومَاتِ الْمُخَوَّلَةِ، لَا بِاعْتِبَارِهَا نَوْعًا مِنَ الْمُجْتَمَعِ وَلَا بِعِدْهَا مَنْظُومَةً مِنَ الْقِيَمِ الْأَخْلَاقِيَّةِ». بَلْ لِأَنَّهَا، عَلَى حَدِّ تَعْبِيرِهِ، لَيْسَتْ إِلَّا «أَلِيَّةً سُوْقِيَّةً»: فَالِنَاخِبُونَ مُسْتَهْلِكُونَ، وَالسِّيَاسِيُّونَ رُؤَادُ أَعْمَالٍ يَتَنَافَسُونَ عَلَى بَيْعِ «السِّلَعِ السِّيَاسِيَّةِ»¹⁸.

غَيْرَ أَنَّ مَآكِفِرُسُونَ يُبَيِّنُ أَنَّ هَذَا التَّصَوُّرَ يَتَغَيَّرُ لَا فِي مَبَادِيهِ فَحَسْبُ، بَلْ فِي تَطْبِيقِهِ الْعَمَلِيِّ أَيْضًا؛ ذَلِكَ أَنَّ السُّوقَ السِّيَاسِيَّةَ لَيْسَتْ سُوْقًا تَنَافُسِيَّةً حَقًّا، وَإِنَّمَا هِيَ فِي الْحَقِيقَةِ سُوْقٌ اخْتِكَارِيَّةٌ oligopolistic market لَا يَتَوَافَرُ فِيهَا إِلَّا قَلِيلٌ مِنَ «الْبَائِعِينَ»، أَيُّ مِنَ الْأَحْزَابِ السِّيَاسِيَّةِ، وَفِي مِثْلِ هَذَا السُّوقِ تُمَلِّي الْعُرُوضُ شُرُوطَهَا عَلَى الطَّلَبِ بَدَلِ أَنْ تَسْتَجِيبَ لَهُ.

وَأَخِيرًا يَتَطَلَّعُ مَآكْفِرُسُونُ إِلَى نَمُودَجٍ رَابِعٍ هُوَ نَمُودَجُ الدِّيمُقْرَاطِيَّةِ التَّشَارِكِيَّةِ participatory democracy
الَّذِي ظَهَرَ شَعَارًا لَدَى الِيسَارِ الْجَدِيدِ New Left فِي سِتِّينِيَّاتِ الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ. وَخُلَاصَةُ هَذَا النَّمُودَجِ أَنَّ
«مُجْتَمَعًا أَكْثَرَ عَدْلًا وَإِنْسَانِيَّةً لَفِي حَاجَةٍ إِلَى نِظَامٍ سِيَاسِيٍّ أَكْثَرَ مُشَارَكَةً».¹⁹
وَلَيْتَ عَدَّ مَآكْفِرُسُونُ هَذَا النَّمُودَجَ «مَرْغُوبًا فِيهِ» ، فَإِنَّهُ لَا يُغْفِلُ الصُّعُوبَاتِ الَّتِي تَعْتَرِضُ تَحَقُّقَهُ. فَمِنْ جِهَةٍ
تُوجَّهُهُ عَقَبَاتٌ تَقْنِيَّةٌ مُتَعَلِّقَةٌ بِحَجْمِ الدَّوْلَةِ وَكَثْرَةِ الْمُشَارِكِينَ، وَمِنْ جِهَةٍ أُخْرَى يَظْهَرُ إِشْكَالٌ أَعْمَقُ يَتَعَلَّقُ
بِكَيْفِيَّةِ الْوُصُولِ إِلَى هَذَا النِّظَامِ.

وَيَرَى مَآكْفِرُسُونُ أَنَّ بُلُوعَ هَذَا النَّمُودَجِ يَفْتَقِرُ إِلَى شَرْطَيْنِ أَسَاسِيَّيْنِ: أَوَّلُهُمَا تَحَوُّلٌ فِي وَعْيِ الشَّعْبِ حَتَّى لَا
يَعُودَ يَنْظُرُ إِلَى نَفْسِهِ عَلَى أَنَّهُ جُمُهُورٌ مِنَ الْمُسْتَهْلِكِينَ، بَلْ بِاعْتِبَارِهِ جَمَاعَةً مِنَ الدَّوَاتِ السَّاعِيَةِ إِلَى «تَنْمِيَةٍ
قُدْرَاتِهَا الدَّائِيَّةِ». «وَنَانِيَّهَا تَقْلِيصُ مَلْحُوظٍ لِلتَّفَاوُّتَاتِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ وَالْاِقْتِصَادِيَّةِ الْجَارِيَةِ، وَلَكِنَّ هَذَيْنِ
الشَّرْطَيْنِ يُنْشِئَانِ مَا يُشْبِهُ حَلَقَةً مُفْرَعَةً؛ فَإِنَّا لَا نَبْلُغُ مُشَارَكَةً دِيمُقْرَاطِيَّةً أَوْسَعَ إِلَّا بَعْدَ تَغْيِيرٍ هَذِهِ
الْأَمْسَاوَةِ وَهَذَا الْوَعْيِ الشَّعْبِيِّ، وَلَا نَحَقِّقُ هَذَا التَّغْيِيرَ إِلَّا مِنْ سَبِيلِ مُشَارَكَةٍ دِيمُقْرَاطِيَّةٍ أَوْسَعِ».²⁰
وَمَعَ ذَلِكَ لَا يَسْتَسْلِمُ مَآكْفِرُسُونُ لِلتَّشَاؤُمِ، وَإِنَّمَا أَبْصَرَ فِي الْوَاقِعِ الْمُعَاصِرِ بَعْضَ الْمَخَاجِ الْمُمْكِنَةِ مِنْ هَذِهِ
الدَّائِرَةِ؛ مِنْهَا تَزَايُدُ الْوَعْيِ بِتَكَالِيفِ التَّنُمُوِّ الْاِقْتِصَادِيِّ، وَانْكِشَافُ آثَارِ عَدَمِ الْاِكْتِرَافِ السِّيَاسِيَّةِ، وَتَنَامِي
الشَّكْلِ فِي قُدْرَةِ الرِّئَاسَةِ عَلَى تَلْبِيَةِ تَوَقُّعَاتِ النَّاسِ. وَمِنْ هُنَا يَمْنَحُ مَآكْفِرُسُونُ نَمُودَجَ الدِّيمُقْرَاطِيَّةِ
التَّشَارِكِيَّةِ مَكَانًا مُهِمًّا فِي مَا يُسَمِّيهِ «مَمْلَكَةُ الْمُمْكِنَاتِ».²¹

4.2 بِنْجَامِين بَارْبِرُ وَنَظَرِيَّةُ «الدِّيمُقْرَاطِيَّةِ الْقَوِيَّةِ» :

قَدَّمَ بِنْجَامِين بَارْبِرُ Benjamin Barber سَنَةَ 1984 مُنَازَرَةً شَهِيرَةً حَوْلَ الدِّيمُقْرَاطِيَّةِ الْقَوِيَّةِ démocratie
forte، جَاءَتْ لِنُكْحِلِ أَعْمَالَ كَارُولِ پَاتْمَانِ وَمَآكْفِرُسُونِ، حَيْثُ يُفْهَمُ ذُبُّهُ عَنِ الدِّيمُقْرَاطِيَّةِ التَّشَارِكِيَّةِ
démocratie participative أَوَّلًا بِاعْتِبَارِهِ امْتِنَاعًا عَنِ الدِّيمُقْرَاطِيَّةِ اللَّيْبَرَالِيَّةِ démocratie libérale الَّتِي
تُعَدُّ ضَعِيفَةً، وَتَهْتَمُّ بِالْإِعْتِمَادِ عَلَى تَصَوُّرٍ يُفْقِرُ الدَّاتَ وَيَقْصِي الْبُعْدَ الْإِنْسَانِيَّ الْحَقِيقِيَّ.
عَلَى الْمُنَوَالِ نَفْسِهِ الَّذِي اتَّبَعَهُ مَآكْفِرُسُونُ، يُدِينُ بَارْبِرُ شَكْلًا مِنْ أَشْكَالِ الْأَدَائِيَّةِ / instrumentalité
instrumentalisation الَّتِي تَظْهَرُ فِي تَعَامُلِ اللَّيْبَرَالِيَّةِ مَعَ الدِّيمُقْرَاطِيَّةِ، حَيْثُ تُصْبِحُ السِّيَاسَةُ «حَارِسًا
يَقِظًا فِي خِدْمَةِ الْإِنْسَانِ الْاِقْتِصَادِيِّ» homo economicus الْبَاحِثِ عَنِ السَّعَادَةِ الْمَادِيَّةِ وَالْأَمْنِ الْجَسَدِيِّ،
دُونَ اعْتِبَارِ لِمَعْنَى الْمَوَاطِنَةِ النَّشِيطَةِ أَوْ الْمُشَارَكَةِ الْأَخْلَاقِيَّةِ.

فِي خِصْمِ تَأْمَلَاتِهِ الْعَمِيقَةِ فِي مَسِيرَةِ الدِّيمُقْرَاطِيَّةِ، يَسْتَلْهِمُ بِنْجَامِين بَارْبِرُ الْمُخْطَطَ الَّذِي رَسَمَهُ إِيْمَانُوِيلُ
كَانْتُ Immanuel Kant فِي مَقَالِهِ الشَّهِيرِ «مَا التَّنْوِيرُ؟ Qu'est-ce que les Lumières?» لَكِنَّهُ لَا يَقِفُ عِنْدَ
حُدُودِ النَّقْلِ، بَلْ يَضْفِي عَلَى الْفِكْرَةِ رُوحًا جَدِيدَةً، وَيُحَوِّلُهَا إِلَى أَدَاةٍ تَقْدِيرِيَّةٍ تُمِيطُ اللَّثَامَ عَنْ هَشَاشَةِ
الدِّيمُقْرَاطِيَّةِ اللَّيْبَرَالِيَّةِ، الَّتِي تُصَوِّرُ الْفَرْدَ أَنَانِيًّا، عَاجِزًا عَنِ الْاضْطِلَاعِ بِالسِّيَاسَةِ، مُقْصِرًا فِي آدَاءِ دَوْرِهِ.

وَفِي مُوَاجَهَةِ هَذَا الْقَيْدِ، يَزْفَعُ بَارْبِرُ لَوَاءِ الدِّيمُقْرَاطِيَّةِ الْقَوِيَّةِ *démocratie forte* كَفَضَاءٍ لِلْحُرِّيَّةِ الْحَقِيقِيَّةِ وَالْمُشَارَكَةِ الصَّادِقَةِ، حَيْثُ تَتَحَوَّلُ التَّرْبِيَّةُ الْمَدَنِيَّةُ إِلَى وَسِيلَةٍ لِإِحْيَاءِ الْفَاعِلِيَّةِ الْإِنْسَانِيَّةِ، وَإِعَادَةِ تَشْكِيلِ الْفَرْدِ لِيَصِيرَ مُوَاطِنًا فَاعِلًا، لَا مُجَرَّدَ تَابِعٍ مُدْعِنٍ لِإِلِيَّاتِ السُّلْطَةِ. أَمَّا الدِّيمُقْرَاطِيَّةُ الضَّعِيفَةُ *démocratie faible*، فَيَصِفُهَا أَنَّهَا مَصْرُوفَةٌ عَنِ الْإِتِّكَارِ وَالْإِبْدَاعِ، لَا تَعْتَرِفُ إِلَّا بِالْإِنْسَانِ فِي أَسْوَأِ أَحْوَالِهِ، فَتَعْدُو غَيْرَ قَادِرَةٍ عَلَى اسْتِثْمَارِ طَاقَاتِهِ الْكَامِنَةِ، وَتَعْدُو السِّيَاسَةَ فِي قَبْضَتِهَا مُجَرَّدَ حَارِسٍ يَقِظٍ لِجَمَاعَةِ النِّظَامِ، لَا أَدَاءَ لِتَحْرِيرِ الْإِنْسَانِ.

هَكَذَا، تَتَحَوَّلُ الدِّيمُقْرَاطِيَّةُ الْقَوِيَّةُ عِنْدَ بَارْبِرٍ إِلَى لَوْحَةٍ مُتَكَامِلَةٍ، حَيْثُ الْفَرْدُ وَالْمُجْتَمَعُ وَالسِّيَاسَةُ مُتَشَابِكَةٌ فِي رَفْصَةٍ مُتَوَاصِلَةٍ مِنَ التَّحَوُّلِ وَالْإِبْدَاعِ، فَتَكُونُ السِّيَاسَةُ لَيْسَتْ مُجَرَّدَ وَسِيلَةٍ، بَلْ فَضَاءٌ لِإِحْيَاءِ الْفَضَائِلِ الْمَدَنِيَّةِ، وَاشْعَالِ شُعْلَةِ الْوَعْيِ وَالْمُشَارَكَةِ، وَتَحْوِيلِ الْمَوَاطِنِ مِنْ كَائِنٍ مُخْدُودٍ فِي ذَاتِهِ إِلَى صَانِعٍ لِمَصِيرِهِ، وَتَصْيِيرِ الدِّيمُقْرَاطِيَّةِ قُوَّةً مُتَجَدِّدَةً.²²

يَبْدَأُ بِنَجَامِينِ بَارْبِرُ بِتَعْرِيفِ الدِّيمُقْرَاطِيَّةِ الْقَوِيَّةِ مِنْ طَرِيقِ تَصْوِيرِ طَابِعِ الْمَوَاطِنِينَ الَّذِينَ يُمَكِّنُهُمْ هَذَا النِّظَامُ مِنْ إِدَارَةِ أَنْفُسِهِمْ ذَاتِيًّا، فَتَقُومُ الدِّيمُقْرَاطِيَّةُ عَلَى فِكْرَةٍ مُجْتَمَعٍ مِنَ الْمَوَاطِنِينَ يَتَّحِدُونَ أَقْلًا بِمَبْنَى عَلَى مَصَالِحِهِمُ الْمُتَجَانِسَةِ مِمَّا هُمْ مُوَحَّدُونَ بِ التَّرْبِيَّةِ، تَرْبِيَّةٍ تُمَكِّنُهُمْ مِنْ إِقَامَةِ أَهْدَافِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ جَمِيعًا بِاسْمِ رُؤْيَا مَدَنِيَّةٍ لِلْمُجْتَمَعِ - لَيْسَ بِفَضْلِ الْإِثَارِ وَلَا بِحُسْنِ الطَّبِيعَةِ، بَلْ بِفَضْلِ مُؤَسَّسَاتٍ تُشَجِّعُ الْمُشَارَكَةَ.²³

وَيُشَدِّدُ بَارْبِرُ عَلَى الْفَضَائِلِ التَّرْبِيَّةِ لِـ "المُشَارَكَةِ" *participation*، الَّتِي، فِي رَأْيِهِ، تَسْتَطِيعُ تَحْوِيلَ الْخَاصِّ إِلَى الْعَامِّ، وَالتَّبَعِيَّةِ إِلَى الْإِسْتِقْلَالِ، وَالصِّرَاحِ إِلَى تَعَاوُنٍ، وَتَصْيِيرِ التَّسَاهُلِ اخْتِيَارًا شَخْصِيًّا، وَالْحَاجَةِ مَحَبَّةً، وَالْخُضُوعِ مُوَاطَنَةً مَتَى وَضِعَتِ الْمُشَارَكَةُ فِي سِيَاقِهَا.²⁴

فِي مُحَاوَلَةٍ مِنْهُ لِتَصْنِيفِ الدِّيمُقْرَاطِيَّةِ وَفَقَ رُؤْيَا مَنَهْجِيَّةٍ، يُقَدِّمُ بِنَجَامِينِ بَارْبِرُ نَمُودَجًا مِنْ خَمْسَةِ أَنْوَاعٍ مِثَالِيَّةٍ، لَكِنَّهُ يَمَيِّزُ - عَلَى نَحْوٍ مُخْتَلِفٍ عَنِ الصُّورِ التَّمْثِيلِيَّةِ التَّقْلِيدِيَّةِ (التَّمْثِيلِيَّةُ السُّلْطَوِيَّةُ، التَّمْثِيلِيَّةُ الْقَانُونِيَّةُ، التَّمْثِيلِيَّةُ التَّعْدُدِيَّةُ) - نَمَطَيْنِ مُحَدَّدَيْنِ مِنَ الدِّيمُقْرَاطِيَّةِ الْمُبَاشَرَةِ:

أَوَّلًا: الدِّيمُقْرَاطِيَّةُ الْوَحْدَوِيَّةُ *démocratie unitaire* الَّتِي تُنْشَأُ عَلَى أَسَاسِ إِجْمَاعٍ مُجْتَمَعِيٍّ حَوْلَ الْغَايَاتِ الْهَيَّائِيَّةِ. هَذَا النَّمُودَجُ يُمَثِّلُ خَالَةً حَدِيثَةً تَقِفُ عِنْدَ حَافَةِ السِّيَاسَةِ عَيْنَهَا، حَيْثُ يَكُونُ رَفْضُ الصِّرَاحِ فِي الْآنِ نَفْسِهِ رَفْضًا لِلْسِّيَاسَةِ.²⁵ وَتُؤَاجَهُ هَذِهِ الدِّيمُقْرَاطِيَّةُ مَخَاطِرَ التَّرْعَةِ الْوَاحِدِيَّةِ *monisme*، وَالْإِنْطِبَاعِ، وَالْقَسْرِ النَّاتِجِ عَنِ الْإِجْمَاعِ، مِمَّا يَجْعَلُهَا عُرْضَةً لِلْجُمُودِ وَالْإِنْجِرَافِ عَنِ الْحَيَوِيَّةِ السِّيَاسِيَّةِ.

ثَانِيًا: الدِّيمُقْرَاطِيَّةُ الْقَوِيَّةُ *démocratie forte* الَّتِي يُؤَرِّثُهَا بَارْبِرُ، لِأَنَّهَا تَقُومُ عَلَى قَاعِدَةٍ التَّعْدُدِيَّةِ فِي الْقِيَمِ، وَتُدَافِعُ عَنِ الْمُشَارَكَةِ الْحَقِيقِيَّةِ، وَتَحُضُّ عَلَى الْبِقَاشِ الْمَفْتُوحِ، فِي مَنْحَى مِنَ الْإِسْتِئْذَادِ بِالْإِجْمَاعِ. فَبِئْسَ بِحَسَبِ بَارْبِرٍ، قَادِرَةٌ عَلَى تَحْوِيلِ الصِّرَاحِ إِلَى أَدَاةٍ لِلْبِنَاءِ الْمُشْتَرَكِ، وَتَصْيِيرِ التَّبَايُنِ فِي الْإِرَاءِ إِلَى قُوَّةٍ دِينَامِيَّةٍ تُغَدِّي الْمُجْتَمَعُ وَتُؤَسِّسُ لِمُوَاطَنَةٍ فَاعِلَةٍ.

عَلَى سَبِيلِ الْإِخْتِصَارِ، يُسْفِرُ بَارِزٌ عَنِ الْفَرْقِ الْجَوْهَرِيِّ بَيْنَ هَذَيْنِ النَّمَطَيْنِ: لِنِّ مَالَتْ الْأَوَّلَى إِلَى الْإِجْمَاعِ وَالْإِنْغِلَاقِ، فَإِنَّ الثَّانِيَةَ تَجُنُّ إِلَى التَّعَدُّدِيَّةِ وَالتَّفَاعُلِيَّةِ، وَهِيَ، فِي نَظَرِهِ، الطَّرِيقُ الْأَمْتَلُ لِإِضْفَاءِ رُوحِ الدِّيمُقْرَاطِيَّةِ الْحَقِيقِيَّةِ عَلَى الْمُجْتَمَعِ، وَتَحْوِيلِ السِّيَاسَةِ إِلَى فَضَاءٍ حَيٍّ لِلنِّقَاشِ وَالْمُوَاطَنَةِ. وَمِنْ هُنَا يَنْتَقِلُ بَارِزٌ مِنْ خَالِصِ التَّصَوُّرِ النَّظَرِيِّ إِلَى مِيزَانِ التَّرْتِيبِ الْمُؤَسَّسِيِّ، مُحَاوِلًا أَنْ يَجْعَلَ «الدِّيمُقْرَاطِيَّةَ الْقَوِيَّةَ» لَيْسَتْ فِكْرَةً مُجَرَّدَةً تَتَدَاوَلُهَا الْعُقُولُ، بَلْ نِظَامًا حَيًّا يَنْبُتُ فِي ثُرْبَةِ الْمُجْتَمَعِ وَيَمْتَدُّ فِي جَمِيعِ مِيَادِينِهِ وَمُسْتَوَاتِهِ. وَلِأَجْلِ ذَلِكَ يَسْتَلْهِمُ مِلَاحَظَاتِ أَلِكْسِي دُو توكفيل Alexis de Tocqueville فِي أَثَرِ الْمُبَادِرَاتِ الْمُحَلِّيَّةِ فِي تَرْبِيَةِ الْمَوَاطِنِينَ، وَيَسْتَجِيبُ فِي الْإِنْ نَفْسِهِ لِمَطَالِبِ توماس جيفرسون Thomas Jefferson الدَّاعِيَةِ إِلَى تَوْسِيعِ دَائِرَةِ الْمُشَارَكَةِ، مُخَالِفًا فِي ذَلِكَ تَحَفُّظَاتِ جيمز ماديسون James Madison الَّتِي كَانَتْ تَخْشَى اتِّسَاعَ مِيزَانِ الْمَوَاطَنَةِ الْمُبَاشِرَةِ.

وَعَلَى هَذَا الْأَسَاسِ يَفْتَرِحُ أَنْ تُوَلَّدَ شَبْكَةٌ وَطَنِيَّةٌ مِنْ «جَمَاعَاتِ الْأَحْيَاءِ» وَ«مَجَالِسِ الْمُجْتَمَعِ الْمُحَلِّيِّ»، تَتَّخِذُ صُورَةً مُنْتَدِيَاتٍ عَامَّةٍ يَلْتَقِي فِيهَا الْمَوَاطِنُونَ لَا لِيَتَبَادَلُوا الْأَقْوَالَ فَحَسْبُ، بَلْ لِيَتَعَلَّمُوا فَنَّ الْجَوَارِ وَالتَّدَاوُلِ، فَيَغْدُو الْكَلَامُ فِيهَا تَرْبِيَّةً، وَالْإِخْتِلَافُ تَدْرِيبًا، وَالْمُشَارَكَةُ مَدْرَسَةً تُنْشِئُ الْمَوَاطِنَ الْقَادِرَ عَلَى الْحُكْمِ السِّيَاسِيِّ.²⁶

وَمِنْ تِلْكَ الْبُورِ الْمُحَلِّيَّةِ تَتَشَكَّلُ مَا يُمَكِّنُ تَسْمِيَتَهُ «مَوَاطَنَةُ الْحَيِّ»؛ أَيُّ ذَلِكَ الرَّابِطُ الْمُلْتَمُوسُ الَّذِي يَجْمَعُ بَيْنَ الْأَفْرَادِ فِي حَيَاتِهِمُ الْيَوْمِيَّةِ. غَيْرَ أَنَّ بَارِزًا لَا يَقِفُ عِنْدَ هَذَا الْمُسْتَوَى، بَلْ يَسْتَنْجِ مِنْهُ ضَرُورَةَ تَوْسِيعِ دَائِرَةِ التَّشَاوُرِ، فَتَنْشَأُ مُنْتَدِيَاتُ أَرْحَبِ نِطَاقًا-سَوَاءً أَكَانَتْ إِقْلِيمِيَّةً أَمْ وَطَنِيَّةً- تَتَّصِلُ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ بِوَسَاطَةِ تَقْنِيَّاتِ الْإِتِّصَالِ الْحَدِيثَةِ.

وَلَكِنَّ هَذِهِ التَّقْنِيَّاتِ، فِي نَظَرِهِ، لَا يَجِبُ أَنْ تَخْضَعَ لِمَنْطِقِ السُّوقِ وَقَوَاعِيدِهِ، بَلْ يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ خَارِجَ سُلْطَانِهِ، تَدِيرُهَا هَيْئَةٌ مَدَنِيَّةٌ مُسْتَقِلَّةٌ هِيَ «الْجَمْعِيَّةُ الْمَدَنِيَّةُ لِلاتِّصَالَاتِ Coopérative civique des communications»، تُمَوِّلُ مِنَ الدَّوْلَةِ دُونَ أَنْ تَخْضَعَ لِهَيْمَنَتِهَا، ابْتِغَاءً أَنْ تَبْقَى أَدَاةٌ لِخِدْمَةِ الْمَوَاطِنِ لَا وَسِيلَةً لِاسْتِغْلَالِهِ.

وَحِينَئِذٍ تَغْدُو مَهَامُ هَذِهِ الْجَمْعِيَّةِ أَبْعَدَ مِنْ مُجَرَّدِ تَنْظِيمِ الْإِتِّصَالِ، إِذْ تَتَوَلَّى تَنْظِيمَ الْجَوَارِ الْعَامِّ التَّفَاعُلِيِّ، وَالْإِشْرَافَ عَلَى الْأَسْتَطِلَاعَاتِ وَالتَّصْصُوتِ الْإِلِكْتُرُونِيِّ، وَتَوْفِيرَ الْمَعْلُومَاتِ الضَّرُورِيَّةِ لِتَرْقِيَةِ قُدْرَةِ الْمَوَاطِنِ عَلَى الْحُكْمِ السِّيَاسِيِّ، بِتَوْسُلِ خِدْمَةِ مَدَنِيَّةٍ مَجَانِيَّةٍ لِ«الْفِيدْيُوتِكْسِ الْمَدَنِيِّ. vidéotex civique».²⁷

وَهَكَذَا يَسْتَنْجِ بَارِزٌ أَنَّ الدِّيمُقْرَاطِيَّةَ الْقَوِيَّةَ لَا تَقُومُ عَلَى مُجَرَّدِ الْمُبَادِيِ النَّظَرِيَّةِ، بَلْ تَنْبَغِي عَلَى شَبْكَةٍ مِنْ الْمُؤَسَّسَاتِ الْمُتَدَاخِلَةِ الَّتِي تُرَبِّي الْمَوَاطِنَ عَلَى الْمُشَارَكَةِ، حَتَّى لَا تَغْدُو السِّيَاسَةُ فِعْلًا حُكَامٍ فَقَطْ، بَلْ مِهْنَةٌ مُجْتَمَعٌ بِأَسَرِهِ.

يُدَافِعُ أَيْضًا عَنْ تَعْمِيمِ الْأَسْتِيفَتَاءِ référendums، وَيَفْضِلُ أَنْ تَكُونَ بِمُبَادَرَةٍ شَعْبِيَّةٍ مَصْحُوبَةً بِحَمَلَةٍ تَعْلِيمِ مَدَنِيٍّ، مُسَبَّهَةً بِنِقَاشَاتٍ كَثِيرَةٍ فِي جَمَاعَاتِ الْمَوَاطِنِينَ، وَأَنْ تُقَدَّمَ بِصِفَتِهَا سِلْسِلَةٌ خِيَارَاتٍ (وَلَيْسَ

خيارًا ثنائيًا مقصودًا على «نعم/لا». وَيَتَوَّهْ أَيْضًا بِاسْتِغْمَالِ «الْقَرْعَةِ tirage au sort» لِتَسْمِيَةِ أَعْضَاءِ الْمَجَالِسِ الْمَحَلِّيَّةِ وَبَعْضِ الْمَوْظَفِينَ الْمَدَنِيِّينَ؛ مَنُوطًا بِمَبْدَأِ تَنَاقُوبِ الْمَنَاصِبِ، بِمَا يَضْمَنُ «مُسَاوَاةَ الْوُصُولِ وَتُمَثِيلًا عَادِلًا».²⁸

أَخِيرًا، لَا يَحْتَفِظُ نِظَامُهُ بِحُدُودِ الْمَجَالِ السِّيَاسِيِّ فَقَطْ، وَإِنَّمَا يَدْعُو أَيْضًا إِلَى «تَعْمِيمِ دِيمُقْرَاطِيَّةِ مَوَاقِعِ الْعَمَلِ» démocratiser le lieu de travail: يَسْتَشْهِدُ بِ«نُمُودَجِ الْحَرَكَةِ التَّعَاوُنِيَّةِ الْأَمْرِيكِيَّةِ»، وَدِ «تَقَاسُمِ الْقَرَارَاتِ بَيْنَ الْمُوظَّفِينَ وَالْإِدَارَةَ»، وَبِتَجَارِبِ «الْمُشَارَكَةِ فِي الدَّسِيرِ» فِي أَلْمَانِيَا codétermination، وَدِ «مُشَارَكَةِ الْعَمَالِ فِي الْأَرْبَاحِ وَالنُّظُمِ الْمُرْتَبِطَةِ بِالْأَسْهُمِ».²⁹

5.2 مَوْسَّسَاتُ الدِّيمُقْرَاطِيَّةِ التَّشَارِكِيَّةِ وَالْيَاتُ تَرْسِيخُهَا:

لَا تَتَفَعَّلُ الدِّيمُقْرَاطِيَّةُ وَفَقْ دُرُوبِ تَعَسُفِيَّةٍ قَدْ تَنْتَبِي إِلَى الْعَوَاقِبِيَّةِ، وَإِنَّمَا تَتَوَسَّلُ مَوْسَّسَاتٍ مُعَيَّنَةٍ، مِثْلَ الْجَمَاعَاتِ الْمَحَلِّيَّةِ الَّتِي تَضطلع بِدَوْرٍ تَوَازِعِ الْأَدْوَارِ بَيْنَ الْإِدَارَةِ الْمَرْكَزِيَّةِ لِلدَّوْلَةِ وَالْإِدَارَةِ الْمَحَلِّيَّةِ الَّتِي يَتَجَلَّى فِيهَا مِنْ جَانِبٍ حَقُّ التَّعْبِيرِ الدِّيمُقْرَاطِيِّ وَقُدْرَةُ الْمَوَاطِنِينَ عَلَى الْإِسْهَامِ فِي بِنَاءِ مَدَائِهِمْ وَدَوْلَتِهِمْ، دُونَ حَصْرِ ذَلِكَ فِي طَرَفٍ أَوْ مَوْسَّسَةٍ حَصْرًا يَنْتَبِي فِي الْعَالِبِ، عَلَى مَا بَيَّنَّتِ التَّجَارِبُ السِّيَاسِيَّةُ، إِلَى فَشْلِهَا فِي تَلْبِيَةِ طُمُوحَاتِ الْمَوَاطِنِينَ وَتَجْسِيدِ الْمَشَارِيعِ التَّنْمُوِيَّةِ. زِيَادَةً عَلَى ذَلِكَ، تَسْتَنْدُ الدِّيمُقْرَاطِيَّةُ التَّشَارِكِيَّةُ أَيْضًا إِلَى قِيَوَى الْمَجْتَمَعِ الْمَدَنِيِّ الَّتِي تَشْمَلُ كُلَّ الْمُنْظَمَاتِ وَالْمَوْسَّسَاتِ الْمَدَنِيَّةِ السِّيَاسِيَّةِ وَالْاِقْتِصَادِيَّةِ وَالْاجْتِمَاعِيَّةِ وَالثَّقَافِيَّةِ الَّتِي تَنْشِطُ فِي اسْتِقْلَالِ عَنِ السُّلْطَةِ ابْتِغَاءَ الْمُشَارَكَةِ فِي صُنْعِ الْقَرَارَاتِ السِّيَاسِيَّةِ، وَالِدِّفَاعِ عَنْ مَصَالِحِ الْمَجْتَمَعِ، وَنَشْرِ الْوَعْيِ الثَّقَافِيِّ، وَالتَّنْمِيَّةِ فِي مُخْتَلِفِ صُورِهَا.

لَيْسَ مِنْ مُدْعَى الدِّيمُقْرَاطِيَّةِ نَقْلُ جَمِيعِ السُّلْطَاتِ الْعَامَّةِ إِلَى الْمُسْتَوَى الْمَحَلِّيِّ، عَلَى غِرَارِ الْبَلَدِيَّاتِ التَّحْرِيرِيَّةِ municipalisme libertaire الَّتِي تُؤِيدُ إلْغَاءَ الدَّوْلَةِ بِاللَّمْرَكَزِيَّةِ السِّيَاسِيَّةِ وَالْمَادِيَّةِ لِلْمَدْنِ الْكُبْرَى وَإِنْشَاءَ اتِّحَادٍ لِلْبَلَدِيَّاتِ الصَّغِيرَةِ الْمُنْتَعِمَةِ بِالْحُكْمِ الدَّائِي municipalités auto-gouvernées³⁰، بَلْ مِنْ مَفَادِهَا الدَّفْعُ بِاللَّمْرَكَزِيَّةِ إِلَى ذَرَوَتِهَا، لَكِنْ ذَلِكَ فِي إِطَارِ تَفْرِيعِ السُّلْطَةِ أَوْ فِي ظِلِّ التَّبَعِيَّةِ subsidarité لِلدَّوْلَةِ الْمَرْكَزِيَّةِ، وَذَلِكَ يَقُومُ عَلَى مَبْدَأِ إِسْنَادِ الْمَسْئُولِيَّةِ عَلَى الْفِعْلِ الْعَامِ l'action publique إِلَى أَصْغَرِ كِيَانٍ قَادِرٍ عَلَى حَلِّ مُشْكَلَةٍ مَا بِنَفْسِهِ.³¹

أَمَّا بِالنِّسْبَةِ لِأَلْيَاتِ الدِّيمُقْرَاطِيَّةِ التَّشَارِكِيَّةِ، فَإِنَّمَا سَنُورِدُ أَرْبَعًا مِنْهَا، مُبْتَدِئِينَ بِالِاسْتِفْتَاءِ الشَّعْبِيِّ الَّذِي يُبْدِي فِيهِ كُلُّ الْمَوَاطِنِينَ آرَاءَهُمْ وَاخْتِيَارَاتِهِمْ، مَا يَضْمَنُ إِسْهَامَ أَكْبَرَ قَدْرِ مُمَكِّنٍ مِمَّنْ هُمْ مُؤَهَّلُونَ لِلْإِدْلَاءِ بِأَصْوَاتِهِمْ، لَكِنْ مِنْ أَوْجِهِ الْقُصُورِ فِي هَذِهِ الْأَلْيَةِ الدِّيمُقْرَاطِيَّةِ اقْتِصَارُ الْمُشَارَكَةِ الْمَدَنِيَّةِ عَلَى التَّصَوُّبِ بِالْإِجَابِ أَوْ السَّلْبِ، دُونَ إِمْكَانِ بَسْطِ الْآرَاءِ فِي جَوِّ تَفَاعُلِيٍّ يَسْمَحُ بِتَقْدِيمِ بَدَائِلَ جَدِيدَةٍ وَتَعْدِيلَاتٍ تَفْصِيلِيَّةٍ مُوَاتِيَةٍ. وَإِضَافَةً إِلَى هَذَا، ثَمَّةُ الْمُبَادَرَةُ الشَّعْبِيَّةُ الَّتِي هِيَ أَكْثَرُ الْأَلْيَاتِ أَنْسَجَامًا مَعَ رُوحِ الدِّيمُقْرَاطِيَّةِ التَّشَارِكِيَّةِ. ذَلِكَ لِأَنَّ الْمَوَاطِنِينَ بِفَضْلِهَا يَقْتَرِحُونَ أُمُورًا مُعَيَّنَةً، إِلَى أَنْ يُصَارَ، بَعْدَ جَمْعِ عَدَدٍ

مُعَيَّنٍ مِنَ التَّوَقُّعَاتِ، إِلَى مَرَحَلَةِ الاسْتِفْتَاءِ، وَمِثَالُ ذَلِكَ أَنَّ الْمَوَاطِنِينَ فِي سويسرا، مِنْ أَجْلِ عَرْضِ مُبَادِرَةٍ عَلَى التَّصْوِيتِ الشَّعْبِيِّ، يَجْرِي جَمْعُ 100 أَلْفِ تَوْقِيعٍ مُوْتَقٍ مِنْ طَرَفِ النَّاخِبِينَ، فِي مَدَّةٍ لَا تَتَعَدَّى 18 شَهْرًا، وَإِذَا تَمَّ إِقْرَارُ مَضْمُونِ الْمُبَادِرَةِ بَعْدَ الاسْتِفْتَاءِ، تُمَسِّي نَافِذَةً وَمُودَعَةً فِي الدُّسْتُورِ. وَمِنْ آيَاتِ عَمَلِ الدِّيمُقْرَاطِيَّةِ التَّشَارِكِيَّةِ أَيْضًا تَقْدِيمُ الْعَرَائِضِ إِلَى السُّلْطَاتِ الْمُخْتَصَّةِ، مِنْ أَجْلِ عَرْضِ مُبَادِرَاتٍ وَمَشَارِعٍ وَقَوَانِينٍ. لَا يَنْبَغِي أَنْ تَعَزَّبَ عَنَّا أَيْضًا أَلِيَّةُ الْمِيزَانِيَّةِ التَّشَارِكِيَّةِ حَيْثُ يَتَنَاقَشُ الْمَوَاطِنُونَ فِي مِيزَانِيَّةِ الْبَلَدِيَّةِ. بِالإِضَافَةِ إِلَى هَذَا كُلِّهِ، يَرَى جُون بَاركنسون John Parkinson أَنَّهُ فِي مَقْدُورِ الْحَرَكَاتِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ وَشَهَادَاتِ الْخُبْرَاءِ وَجَلَسَاتِ الاسْتِمَاعِ الْعَامَّةِ audiences publiques وَوَسَائِلِ الْإِعْلَامِ وَعَرَائِضِ الْإِتِمَاسِ pétitions وَالاسْتِفْتَاءَاتِ أَنْ تُسَهِّمَ جَمِيعُهَا بِطَرِيقِ شَتَّى فِي الشَّرْعِيَّةِ الدِّيمُقْرَاطِيَّةِ لِلْسِّيَاسَاتِ الْعَامَّةِ عَلَى الْمُسْتَوَى التَّدَاوُلِيِّ plan délibératif.³²

مِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَى، تُتَبَّحُ آيَاتُ الْمَشَارَكَةِ عَلَى الْمُسْتَوَى الْمُحَلِّيِّ، مِثْلَ الْمِيزَانِيَّاتِ التَّشَارِكِيَّةِ، وَهَيْئَاتِ الْمُحَلِّفِينَ مِنَ الْمَوَاطِنِينَ، وَالْقُرْعَةِ وَالْاجْتِمَاعَاتِ الْعَامَّةِ، لِعَدَدٍ أَكْبَرَ مِنَ الْأَفْرَادِ الْمَشَارَكَةِ فِي الشُّؤْنِ الْمَشْتَرَكَةِ، أَتَوَسَّلُوا فِي ذَلِكَ الْمَدَاوِلَاتِ أَمْ التَّصْوِيتِ أَمْ حَتَّى الْمُنَاصَبِ الْعَامَّةِ. كَمَا يُلَاحِظُ جَان سَتِيوارْت مِيل: «فِي هَذِهِ الْمَوَاقِفِ، يَجِبُ عَلَيْهِمُ التَّصَرُّفُ، وَكَذَلِكَ التَّفَكُّيرُ وَالتَّعْبِيرُ عَنْ أَنْفُسِهِمْ، وَفَقْ الْمَصَالِحِ الْعَامَّةِ، وَلَا يُمَكِّنُ لِلْمَرْءِ التَّفَكُّيرُ فِي كُلِّ شَيْءٍ بِالْوَكَالَةِ. وَيُمْكِنُ إِضَافَةُ أَنَّ هَذِهِ الْوُظَائِفَ الْمُحَلِّيَّةَ، الَّتِي لَا تَطْمَعُ فِيهَا الطَّبَقَاتُ الْعُلْيَا عُمُومًا، تَجْعَلُ هَذَا التَّلْعِيمَ السِّيَاسِيَّ الْمُهْمَّ، الَّذِي يَتَلَقَّاهُ الْمَرْءُ بِفَضْلِ مُمَارَسَتِهِ، فِي مُتَنَاوِلِ الطَّبَقَاتِ الدُّنْيَا مِنَ الْمَجْتَمَعِ»³³.

تَطْرَحُ إِيرِيس مَارِيون يونغ Iris Marion Young فِكْرَةَ التَّمَكِّنِ الْمُحَلِّيِّ empowerment local لِتُعْيِينَ الْمَشَارَكَةِ فِي عَمَلِيَّةِ صُنْعِ الْقَرَارِ، بِوَسَاطَةِ التَّصْوِيتِ الْفَعَالِ وَالْحَقِّ فِي التَّصْوِيتِ³⁴. وَتُسَدِّدُ، فِي الْإِطَارِ الْمُعْيَارِيِّ لِلْمُسَاوَةِ الدِّيمُقْرَاطِيَّةِ الرَّادِيكَالِيَّةِ، عَلَى افْتِضَاءِ الْعَدَالَةِ تَمَكِّنُ كُلِّ شَخْصٍ مِنَ الْوُصُولِ إِلَى الْوَسَائِلِ الْمُؤَسَّسِيَّةِ الَّتِي تُمْكِنُهُ مِنَ الْمَشَارَكَةِ بِفَعَالِيَّةٍ فِي الْقَرَارَاتِ الَّتِي تُؤَثِّرُ فِي أَعْمَالِهِ وَظُرُوفِ أَعْمَالِهِ³⁵. وَفَوْقَ ذَلِكَ، تَعُدُّ هَذِهِ الْمَنْظَرَةَ مَجَالَسَ الْأَحْيَاءِ وَحَدَاتٍ أَسَاسِيَّةً لِلْمَشَارَكَةِ الدِّيمُقْرَاطِيَّةِ³⁶. وَهِيَ مَجَالِسُ تَتَأَلَّفُ مِنَ الْمَوَاطِنِينَ وَمُمَثِّلِي أَمَاكِنِ الْعَمَلِ représentants des lieux de travail وَمَجَالِسِ الْإِسْكَانِ conseils de logement وَغَيْرِهَا مِنَ الْجَمْعِيَّاتِ. وَتَضُطَّلِعُ مَجَالِسُ الْأَحْيَاءِ هَذِهِ بِتَحْدِيدِ الْأَوَلِيَّاتِ الْمُحَلِّيَّةِ priorities locales وَالْأَرَاءِ السِّيَاسِيَّةِ الَّتِي يَتَعَيَّنُ عَلَى مُمَثِّلِي الْأَحْيَاءِ الْمُنتَخَبِينَ التَّعْبِيرُ عَنْهَا فِي الْجَمْعِيَّاتِ الْإِقْلِيمِيَّةِ assemblées régionales. عِلَاوَةً عَلَى ذَلِكَ، تَكْمُنُ الْوُظَيْفَةُ الرَّئِيسَةُ لِتَجْمُعاتِ الْأَحْيَاءِ فِي تَعَزِيزِ الْمَوَاطِنَةِ الْفَاعِلَةِ عَلَى الصَّعِيدِ الْإِقْلِيمِيِّ. بِنَاءً عَلَى ذَلِكَ، سَتَكُونُ الْحُكُومَةُ الْإِقْلِيمِيَّةُ مَسْؤُولَةً عَنِ اعْتِمَادِ السِّيَاسَاتِ الْعَامَّةِ وَاللَّوَائِحِ وَالْقَرَارَاتِ الرَّئِيسَةِ الَّتِي مِنَ الْمُسْتَطَاعِ تَطْبِيقُهَا وَإِدَارَتُهَا عَلَى الصَّعِيدِ الْمُحَلِّيِّ. وَمِنْ الْغَايَاتِ الَّتِي يَنْشُدُ إِلَى تَحْقِيقِهَا هَذَا النَّمُودَجُ الْكَفَاءَةُ الْمَدْنِيَّةُ، فَضْلًا عَنْ تَعَزِيزِ الْعَدَالَةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ وَهُوَ مَا تُشِيرُ إِلَيْهِ إِيرِيس مَارِيون يونغ بِقَوْلِهَا: «تَحَقُّقُ الْخَدَمَاتِ الْعَامَّةِ الَّتِي تُدَارُ عَلَى الصَّعِيدِ الْإِقْلِيمِيِّ

الكفاءة المثلى في هذه الأنساق. من العَبَث والتَّصَنُّع أن تُحافظَ خَمَسَ عَشْرَةَ بَلَدِيَّةً صَغِيرَةً عَلَى أَقْسَامِ الإِطْفَاءِ الْخَاصَّةِ بِهَا عِنْدَمَا لَا تُسْتَعْمَدُ كُلُّ وَاحِدَةٍ شَاجِنَاتِهَا الثَّلَاثَةِ سِوَى مَرَتَيْنِ فَقَطْ فِي السَّنَةِ. لَكِنِ الْمِيزَةُ الرَّئِيسَةُ لِلْخِدْمَاتِ الْعَامَّةِ الْإِقْلِيمِيَّةِ فِي كَوْنِهَا تُعَزِّزُ الْعَدَالَةَ عَلَى أَفْضَلِ وَجْهِ. عَلَى سَبِيلِ الْمِثَالِ، سَتُضْعَفُ الْمَدَارِسُ الْمُوَحَّدَةُ وَالْمَمَوَّلَةُ إِقْلِيمِيًّا الدَّافِعَ وَرَاءَ «الْهَرُوبِ الْأَبْيَضِ» وَمَا يَنْتُجُ مِنْ ذَلِكَ مِنْ تَدَهُّورِ الْمَدَارِسِ فِي مَرَاكِزِ الْمَدْنِ. يَجِبُ أَنْ تَسِيرَ هَذِهِ الْمَدَارِسُ الَّتِي تُدِيرُهَا الْمُنْطَقَةُ جَنْبًا إِلَى جَنْبٍ مَعَ الْمَجَالِسِ الْمَدْرَسِيَّةِ الَّتِي مِنْ شَأْنِهَا تَمَكِّنُ الْآبَاءَ وَالْمُعَلِّمِينَ مِنْ وَضْعِ سِيَاسَاتٍ لِمَدَارِسِهِمُ الْخَاصَّةِ.³⁷

وَيُضَيِّفُ إِيرِيسَ مَارِيونَ يُونِغَ أَنَّ الْحُكُومَةَ الْإِقْلِيمِيَّةَ *gouvernement régional* يَجِبُ أَنْ تَتَوَلَّى مَسْئُولِيَّةَ الْقَرَارَاتِ وَالتَّوَجُّهَاتِ الرَّئِيسَةِ مِنْ حَيْثُ التَّخْطِيطُ الْحَضْرِيُّ *planification urbaine* وَتَقْدِيمُ الْعَدِيدِ مِنَ الْخِدْمَاتِ مِنْ أَغْلَاهَا أُولَوِيَّةً إِلَى أَدْنَاهَا أُولَوِيَّةً، عَلَى صَعِيدِ الْمَدَارِسِ وَالْمَكْتَبَاتِ وَالصِّحَّةِ الْعَامَّةِ وَالْخِدْمَاتِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ وَالطَّرِيقِ السَّرِيعَةِ وَالنَّقْلِ وَالصَّرْفِ الصَّحِيِّ، إلخ.³⁸ تَبَعًا لِهَذَا الْمُنْطَوْر، سَيَكُونُ لَدَى السُّلْطَاتِ الْمَحَلِّيَّةِ عَدَدٌ أَقَلُّ بِكَثِيرٍ مِنَ الْاِخْتِصَاصَاتِ.

وَبِالنَّظَرِ إِلَى أَوْجِهَةِ الْقُصُورِ الَّتِي انْطَوَتْ عَلَيْهَا إِجْرَاءَاتُ الدِّيْمُقْرَاطِيَّةِ التَّقْلِيدِيَّةِ، وَمَا دَامَتْ هَاتِهِ الْأَوْجُهُ الَّتِي نَحْوُلُ التَّغَلَّبَ عَلَيْهَا زَانِعَةً إِلَى إِعَادَةِ إِنتَاجِ نَفْسِهَا فِي هَذَا الشَّكْلِ الْجَدِيدِ مِنَ الدِّيْمُقْرَاطِيَّةِ، فَإِنَّهُ مِنْ الضَّرُورِيِّ عَدَمُ النَّظَرِ إِلَى الْمِشَارَكَةِ الدِّيْمُقْرَاطِيَّةِ عَلَى أَنَّهَا مِثْلٌ طَبِيعِيٌّ، ذَلِكَ أَنَّ الْمِشَارَكَةَ ظَاهِرَةٌ غَيْرُ طَبِيعِيَّةٍ يَجِبُ بِنَاؤُهَا وَتَكْيِيفُهَا بِاسْتِمْرَارٍ.³⁹ لِذَلِكَ يَبْدُو مِنَ الْأَهْمِيَّةِ بِمَكَانِ التَّفَكُّيرِ فِي كَيْفِيَّةِ جَعْلِ الْمَخْطَطَاتِ الْمَحَلِّيَّةِ التَّنْمُوِيَّةِ أَكْثَرَ تَمَثِيلًا مِنْ أَجْلِ دَمَجِ أَشَدِّ السُّكَّانِ جِزْمَانًا.

يَجِبُ أَنْ نَضْمَنَ اسْتِخْدَامَ الْمَوَاطِنِينَ لِلْحَيَازِ التَّشَارِكِيِّ الْمُنَاحِ لَهُمْ. وَمُجَرَّدُ وُجُودِ مِثْلِ هَذَا الْحَيَازِ لَا يَكْفِي لِضَمَانِ الْمِشَارَكَةِ، وَلَا لِضَمَانِ تَأْثِيرِ هَذِهِ الْمِشَارَكَةِ فِي السُّلْطَاتِ الْعَامَّةِ. مِنَ الْمَطْلُوبِ أَنْ يَكُونَ لِلْمَوَاطِنِينَ قُوَّةٌ نَفْوَ حَقِيقِيَّةٌ (تَتَجَاوَزُ آيَاتِ التَّشَاوُرِ الْمَحْضِ) وَعَلَى ذَلِكَ أَنْ يَنْعَكِسَ حَقًّا فِي تَجَسُّدِ الْكَثِيرِ مِنَ الْبَرَامِجِ وَالْمَشَارِيعِ. ذَلِكَ أَنَّهُ مِنَ الْمَرْجَحِ أَنْ يُشَارَكَ الْمَوَاطِنُونَ إِذَا عَلِمُوا أَنَّ أَفْعَالَهُمْ لَمْ تَذْهَبْ سُدًى. وَمِنْ ثَمَّ، كُلَّمَا كَانَ الدَّوْرُ الْمُنَوَّطُ بِالسُّكَّانِ أَكْثَرَ أَهْمِيَّةً، زَادَتْ أَعْدَادُهُمْ فِي الْمِشَارَكَةِ فِي الْقَرَارَاتِ الْعَامَّةِ.

وَلِتَجَنَّبَ خَبِيَّةَ أَمَلِ الْمَوَاطِنِينَ، يَجِبُ أَنْ يُحَدَّدَ أَيُّ إِجْرَاءٍ تَشَارِكِيٍّ مُنْذُ الْبِدَايَةِ الدَّوْرَ الَّذِي يُؤَدِّيهِ السُّكَّانُ، وَلَا يَتَأَتَّى ذَلِكَ إِلَّا إِذَا جَرَى تَعْيِينُ أَهْدَافٍ وَاضِحَةٍ. إِنْ لَمْ يَحْصَلْ تَلْبِيَةُ التَّوَقُّعَاتِ، فَمِنْ غَيْرِ الْمَرْجَحِ أَنْ يُشَارَكَ الْمَوَاطِنُ فِي تَجْرِبَةٍ تَشَارِكِيَّةٍ ثَانِيَّةٍ. وَتَوَلَّفُ الْمَعْلُومَاتُ أَيْضًا عَامِلًا حَاسِمًا فِي عَمَلِيَّةِ اصْطِنَاعِ النِّظَامِ عَلَى الصَّعِيدِ الْمَحَلِّيِّ. وَيُطْلَبُ أَنْ تَكُونَ الْمَعْلُومَاتُ الْمُتَعَلِّقَةُ بِالمَشْرُوعِ وَإِمَّاكِنِ الْمِشَارَكَةِ فِي إِتْخَاذِ الْقَرَارِ أَمْرًا مُتَاحًا، وَمُبَسَّرَ قِرَاءَتِهَا وَنَشْرُهَا عَلَى نِطَاقٍ وَاسِعٍ. فَعَلَى سَبِيلِ الْمِثَالِ، لَا يَتَنَاحُ دَائِمًا لِأَضْعَافِ الْفِئَاتِ السُّكَّانِيَّةِ إِمَّاكِنُ الْوُصُولِ إِلَى الْإِنْتَرْنِتِ وَمَا مِثْلُهَا، وَلَعَلَّ ذَلِكَ رَاجِعٌ إِلَى كَوْنِهَا فِئَةً أُمِّيَّةً *analphabète*، لِذَا لَيْسَ بِمَقْدُورِهَا قِرَاءَةُ إِشْعَارٍ يُنْشَرُ بِبَسَاطَةٍ فِي الْأَمَاكِنِ الْعَامَّةِ.

السُّكَّانُ الْمَحْرُومُونَ، إِذَا تَحَدَّثُوا غَلَانِيَّةً، فَإِنَّهُمْ أَكْثَرُ النَّاسِ غُرْضَةً لِلتَّحَدُّثِ غَلَانِيَّةً عَنْ وَضْعِهِم الْفَرْدِيِّ، فَبَدَلًا مِنْ أَعْتَابِ هَذَا التَّهَجُّجِ أَنَانِيًّا، يُمَكِّنُ اسْتِخْدَامُهُ مُنْطَلَقًا يَسْمَحُ بِتَقْيِيمِ السُّكَّانِ. إِذْ لَطَالَمَا أَفْضَى

العَرْضُ التَّفْصِيلِيُّ لِلتَّجَرِبَةِ الشَّخْصِيَّةِ إِلَى مِيلَانِ الْمَوَاطِنِ إِلَى اقْتِرَاحِ حَلٍّ يَهْدَفُ إِلَى الْمَصْلَحَةِ الْعَامَّةِ. وَمِنْ الْيَسِيرِ أَيْضًا اِلِاسْتِفَادَةُ مِنْ هَذِهِ التَّجَارِبِ الْفَرْدِيَّةِ، لِأَنَّهَا تُتَبَّعُ فِيْهِمْ اِحْتِيَاجَاتِ الْاَفْرَادِ وَاِدْمَاجُهَا بِطَرِيقَةٍ جَمَاعِيَّةٍ بَعْدَ ذَلِكَ، وَهَذَا يُقَدِّمُ مَعْلُومَاتٍ جَدِيدَةً عَنِ الْاَوْضَاعِ الْعَامَّةِ الَّتِي تُرْفَقُ كَاهِلٍ قَاطِنِي اِقْلِيمٍ مَا، وَهَذَا مَا يَغِيبُ عَنِ السُّلْطَاتِ الْعَامَّةِ الَّتِي لَمْ تَخْتَبِرِ الْاَوْضَاعَ غَيْرِ الْمُسْتَقَرَّةِ الَّتِي يَعِيشُ فِيْهَا هَؤُلَاءِ السُّكَّانُ الْمَحْرُومُونَ، وَمِنْ الْعَسِيرِ عَلَيْنَا بِنَاءٌ عَلَى ذَلِكَ تَصَوُّرُ اِحْتِيَاجَاتِهِمْ.

لَا يُمْكِنُ الْحَدِيثُ عَنِ الدِّيمُقْرَاطِيَّةِ التَّشَارِكِيَّةِ بِمَعْرِزٍ عَمَّا يُصْطَلَحُ عَلَيْهِ بِالرَّأْسَمَالِ الثَّقَافِي، إِذْ هُوَ اَحَدُ أَكْثَرِ الْجَوَانِبِ اِشْكَالِيَّةً، عِنْدَمَا يَتَعَلَّقُ الْأَمْرُ بِإِشْرَاحِ الشَّرَاحِ الْمَحْرُومَةِ الَّتِي تَجِدُ نَفْسَهَا مُفْتَقِرَةً إِلَى فَصْلِ الْخِطَابِ أَوْ قُوَّةِ الْبَيَانِ الَّتِي تَسْمَحُ لَهُمْ بِالْإِعْرَابِ عَنْ آرَائِهِمْ دُونَ اِسْتِصْغَارِهَا وَلَا الشُّعُورِ بِالْإِخْرَاجِ وَالِدُّوْنِيَّةِ. لِلْحَدِّ مِنْ هَذَا الْحَائِلِ الثَّقَافِيِّ يَنْبَغِي حَظْرُ اللُّغَةِ الْمُعَقَّدَةِ وَالتَّقْنِيَّةِ، تَلَاْفِيًا لِلْهَيْمَنَةِ بِاللُّغَةِ domination par le langage. وَيَجِبُ أَنْ تُسَاقَ الْعِلَاقَةُ غَيْرِ الْمَتَكَافِئَةِ بَيْنَ السُّكَّانِ وَالْمُمَثِّلِينَ الْمُنْتَخَبِينَ/ الْخَبْرَاءِ إِلَى الْمَسَاوَةِ. وَمِنْ أَجْلِ مُكَافَحَةِ الْخَوْفِ مِنَ التَّحَدُّثِ عَلَنًا، قَدْ يَكُونُ مِنَ الْمُسْتَحْسَنِ تَحْدِيدُ مَوْعِدِ الْاجْتِمَاعَاتِ الْفَرْدِيَّةِ عَلَى هَامِشِ الْجُلُوسَةِ الْعَامَّةِ. وَفِي غُرْضِ هَذِهِ الْاجْتِمَاعَاتِ، سَتُنَاحُ لِلْسُّكَّانِ فُرْصَةً شَرَحِ اَحْوَالِهِمْ وَمَآرِيهِمْ وَالتَّعَرُّفِ، مِنْ جِهَةٍ، إِلَى الْجِهَاتِ الْفَاعِلَةِ الْاُخْرَى الْمَشَارِكَةِ فِي الْعَمَلِيَّةِ الدِّيمُقْرَاطِيَّةِ، وَمِنْ جِهَةٍ اُخْرَى، إِلَى الْعَمَلِيَّةِ التَّشَارِكِيَّةِ نَفْسِهَا.

لَا مَنَاصَ مِنْ تَشْجِيْعِ اِقَامَةِ مُرَاقَقَةٍ تَكْوِينِيَّةٍ لِلْمَوَاطِنِ الْفَقِيرِ، لِأَنَّ الْمَشَارِكَةَ عِبَارَةً عَنْ سَيْرُورَةٍ بِنَاءِ la participation se construit، مَا يَعْنِي أَنَّهَا لَيْسَتْ مُعْطًى فِطْرِيًّا فِي هَذِهِ الْفِئَةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ أَوْ تِلْكَ، وَهَذِهِ السَّيْرُورَةُ تُؤْتِي أَكْثَرَهَا بِإِعْدَادِ الْكَثِيرِ مِنَ الْاجْتِمَاعَاتِ الَّتِي سَتَتَطَوَّرُ خِلَالَهَا عِلَاقَاتُ الْأَلْفَةِ، مَا يُولَدُ فِي الْاَشْخَاصِ ذَوِي الرَّأْسَمَالِ الثَّقَافِيِّ الْمُنْخَفِضِ الثَّقَّةِ بِالنَّفْسِ مِنْ وَجْهِ وَالثَّقَّةِ بِالْعَمَلِيَّةِ السِّيَاسِيَّةِ لِلدِّيمُقْرَاطِيَّةِ التَّشَارِكِيَّةِ مِنْ وَجْهِ ثَانٍ. وَفَضْلًا عَنْ هَذَا جَمِيعِهِ، فَمِنْ الْأَفْضَلِ أَنْ يَتَفَادَى مُنْظَمُو هَذَا النُّوعِ مِنَ الْمَخْطَطَاتِ، لَوْ كَانُوا جَمْعِيَّاتٍ، الْبَحْثُ عَنْ اَلْسُّكَّانِ الْمَحْلِيِّينَ بِنَحْوِ مَنَهِجٍ، وَإِنْ كَانَ مُرَاقِبُهُمْ مُرَاقِبًا مَشْرُوعًا يَكْمُنُ فِي تَمَثِيلِ السُّكَّانِ الْمَحْرُومِينَ، لِأَنَّ الْمَطْلُوبَ يَقْتَضِرُ عَلَى حَثِّ الْمَوَاطِنِ عَلَى أَنْ يَأْخُذَ عَلَى عَاتِقِهِ الْمَسْئُولِيَّةَ وَالْمَشَارِكَةَ بِنَفْسِهِ⁴⁰، دُونَ أَنْ يَشْعُرَ بِأَنَّ جَمْعِيَّةً أَوْ مَجْلِسًا مَا يَتَصَيَّدُهُ كَيُّ يُضْفِيَانِ بِهِ عَلَى نَشَاطِهِمَا مَشْرُوعِيَّةً أَوْ شَرْعِيَّةً سِيَاسِيَّةً لَا غَيْرُ.

إِنَّ التَّحْدِيَّ الْأَعْظَمَ الَّذِي يُجَابِيهِ الْمَشَارِكَةُ الْمُسْتَمْرَةُ فِي السِّيَاسَةِ الْمَحْلِيَّةِ هُوَ تَكْيِيفُ عَمَلِيَّاتِ صُنْعِ الْقَرَارِ، تَلْبِيَّةً لِلتَّوَقُّعَاتِ الْمُتَغَيِّرَةِ لِلْمَوَاطِنِينَ. وَإِذَا تَعَرَّفُ الْكَثِيرُ مِنَ الْوَنَاطِقِ الدُّوَلِيَّةِ الْخَاصَّةِ بِالدِّيمُقْرَاطِيَّةِ التَّشَارِكِيَّةِ وَبِالْعَدِيدِ مِنَ التَّجَارِبِ وَالْمَبَادِرَاتِ الْجَارِيَةِ بِالْفِعْلِ فِي مُخْتَلِفِ الدُّوَلِ وَتَسْتَعْرِضُهَا، فَإِنَّهَا تُشَدِّدُ عَلَى ضَرُورَةِ ضَمَانِ مُشَارِكَةِ الْمَوَاطِنِينَ الَّذِينَ لَطَالَمَا يُغَيَّبُونَ عَنْ عَمَلِيَّةِ صُنْعِ الْقَرَارِ، لِذَلِكَ يَنْبَغِي الْعَمَلُ عَلَى إِشْرَاحِ الْجَمْعِيَّاتِ وَالْمُنْظَمَاتِ الشَّبَابِيَّةِ، وَمُنْتَدِيَّاتِ الْاَحْيَاءِ، وَإِجْرَاءَاتِ الْخِيَارَاتِ الْمَشْرُوكَةِ، وَبِرَاقِ الشَّرَاكَةِ وَالتَّنْمِيَّةِ الْمَجْتَمَعِيَّةِ، وَإِنَّ مِنْ أَجْلِ نَجَاحِ ذَلِكَ، لَا بُدَّ مِنْ اِبْتِدَاعِ الْكَثِيرِ مِنَ الْاَلِيَّاتِ الْاُخْرَى، مِنْهَا تَوْظِيفُ

المواقع الشبكية التفاعلية، والمؤتمرات على اختلاف مضامينها ومُنديات المواطنين وهيئات المحلفين، واستطلاعات الرأي، على أن يحصل النظر إليها على أنها أشكال أخرى مُمكنة للمشاركة المباشرة، تهدف إلى تهيئة الظروف اللازمة لإقامة ديمقراطية أكثر تداولًا.

3. الديموقراطية التشاركية بين تحدياتها ومسلك تعضيدها بالديمقراطية التداولية

على ما في الديمقراطية التشاركية من فضائل مدنيّة حميدة، من تعزيز مشاركة المواطنين وتجويد نوعية صنع القرار السياسيّ، فإنّها لا تُفضي دائمًا إلى فعالية سياسية ناجعة، ما يقضي بضرورة معرفة التحديات التي تعترضها للتغلب عليها. وما الديمقراطية التداولية إلا تلكم المقاربة التي في وسعها أن تُجابه بعض هذه التحديات بالتركيز على المداولات والمناقشات المعمّقة للقضايا السياسية بين المواطنين والقادة السياسيين.

نبحث في هذا المقام التحديات التي تواجه الديمقراطية التشاركية وسننظر بعدئذٍ أيضًا في الديمقراطية التداولية، مُستكشفين مبادئها، وأخيرًا، سنبيّن إمكان الجمع بين الديمقراطية التشاركية والديمقراطية التداولية، من أجل صياغة ديمقراطية أكثر تكاملية وأحسن أداء.

1.3 تحديات الديمقراطية التشاركية

على الرغم مما تحمله الديمقراطية التشاركية من مزايا جليّة إلا أن العمليات التشاركية démarches participatives تواجه من التحديات ما يجعلها عرضة أن تصير بسرعة كبيرة عقبات هائلة. ذلك أن على ما يفترضه مسبقًا هذا النهج من اعتراف بمقدرة السكان المحليين، باعتبارهم فاعلين اجتماعيين، على تدبير الشؤون السياسية لأقاليمهم، فإنّه في حالة السياسة العامة التي تستهدف التخطيط الإقليميّaménagement du territoire لا تعترضه صعوبة معتبرة؛ إذ كثيرًا ما يطالب هؤلاء المواطنون أن يُشاركوا في اتخاذ القرارات، إلا أنهم لا يملكون بالضرورة المعرفة التقنية اللازمة. ومن ثمّ، فمن غير المجدي بالنسبة إلى بعض صانعي القرار أن يسألوا عن آراء هؤلاء المواطنين أنفسهم، ما داموا غير قادرين على إبداء رأي مُستنير مُستوح من معرفة تقنية خاصّة بالتخطيط الحضريّ.

بالإضافة إلى ذلك، نادرًا ما يدرك المواطنون القيود القانونية والتقنية والاقتصادية التي يقوم عليها مشروع ما، مما يعرض للخطر التنفيذ الملموس لإقتراحهم. لمواجهة هذه الصعوبات، من الضروري أن يُخاطب الخبراء والسلطات العامة الجمهور بلغة يُمكن للجميع فهمها من أجل التعريف بملازمات القضايا التي تخصهم وكلّ حيثياتها.

على الدولة أن تؤمن بقُدرة المواطنين على إصدار آراء حكيمة في قضايا كثيرة، وفوق ذلك، لا يكفي فتح عملية صياغة السياسات العامة أمام مشاركة المواطنين لجعلها فعالة، بل ممّا ليس عنه بُد الإيمان بالقيمة المضافة لمعرفة المواطنين، والاستفادة منها، من أجل حكمة واسعة الأفق. ولا غضاضة أن يتم

قَبُولُ أَنْ يُعْطِيَ بَعْضُهُمِ الْأَوَّلِيَّةَ لِحَالَةِ فَرْدِيَّةٍ لَا تُمَثِّلُ بِالضَّرُورَةِ الْكُلَّ. مِنَ الْمُسَلَّمِ بِهِ أَيْضًا أَنَّ الْمُنَاقَشَاتِ لَا تَخْلُو مِنْ مَشَاعِرِ الْغَضَبِ وَالِاسْتِيَاءِ وَلَا يَنْبَغِي أَنْ نَنْصَرِفَ عَنْهَا بِسَبَبِ وُجُودِ تَلَبُّدٍ مَا بَيْنَ الْأَطْرَافِ الْمُتَنَاقِشِينَ، وَعَلَى الْمَوَاطِنِينَ أَنْ يَتَجَاوَزُوا فِي غُضُوبِ الْمَدَاوِلِ مَصَالِحَهُمِ الْفَرْدِيَّةَ، فِيمَا يَخْدُمُ الْمَصْلَحَةَ الْعَامَّةَ.

فِي كَنَفِ الدِّيمُقْرَاطِيَّةِ التَّقْلِيدِيَّةِ كَانَ عَدَمُ اهْتِمَامِ الْمَوَاطِنِينَ بِهَذَا النَّوعِ مِنَ الْإِجْرَاءَاتِ صَارِحًا وَالْمُشَارَكَةُ فِي هَذَا التَّخْطِيطِ الْمَحَلِّيِّ ظَلَّتْ مُنْخَفِضَةً جِدًّا. وَمَرَدُّ ذَلِكَ فِي هَذَا الْإِطَارِ السِّيَاسِيِّ إِلَى أَسْبَابٍ مُتَعَدِّدَةٍ، مِنْهَا أَرْمُهُ عَدَمُ الثِّقَّةِ. وَتَتَفَاقَمُ هَذِهِ السُّخْرِيَّةُ مِنَ السُّلْطَاتِ الْعَامَّةِ فِي الْأَحْيَاءِ الْمَحْرُومَةِ الَّتِي فَقَدَتْ كُلَّ ثِقَتِهَا فِي نِظَامٍ سِيَاسِيٍّ لَا يُلْبِي أَحْتِيَاجَاتِهَا. وَيَقْتَرِنُ فَقْدَانُ الثِّقَّةِ هَذَا بِسِيَاقٍ عَامٍّ يُعْرِفُ بِأَزْمَةِ الدِّيمُقْرَاطِيَّةِ التَّمثِيلِيَّةِ الَّتِي مِنْ أَعْرَاضِهَا تَفَاقُمُ الشَّرْحِ الْفَاصِلِ بَيْنَ الْحُكَامِ وَالْمَحْكُومِينَ، وَهُوَ شَرَحٌ وَصَفَهُ عَالِمُ الْاجْتِمَاعِ كَلَاوْسْ أَوْفِ Claus Offe بِظَاهِرَةِ الْاِغْتِرَابِ السِّيَاسِيِّ الَّتِي تَنُمُّ عَنْ قَسَلِ الْمَوْسَّسَاتِ الدِّيمُقْرَاطِيَّةِ الَّتِي أَقْضَتْ إِلَى تَبْذِيرِ الْمَوَارِدِ الْأَخْلَاقِيَّةِ لِلْمَوَاطِنِينَ.⁴¹

حَادَثَتْ هَذِهِ الْأَزْمَةُ الْوَضْعُ عَلَى التَّحَوُّلِ مِنْ نَمُودَجِ «الْحُكُومَةِ» «gouvernement» إِلَى نَمُودَجِ «الْحَوْكَمَةِ» «gouvernance» وَهُوَ تَحَوُّلٌ يُعَدُّ انْتِثَاقًا لِطَرِيقَةٍ جَدِيدَةٍ فِي إِدَارَةِ الشُّؤُونِ الْعَامَّةِ، مُؤَثِّرَةٌ لِلْمُنَاقَشَةِ وَالشَّرَاكَةِ بَيْنَ الْقِطَاعَيْنِ الْعَامِّ وَالْخَاصِّ، وَمُؤَيِّدَةٌ لِلْكَفَاءَةِ وَالشَّفَافِيَّةِ وَالْمُشَارَكَةِ. نَجَمَ مِنْ هَذِهِ الطَّرِيقَةِ الْجَدِيدَةِ اسْتِجْلَابُ الْمُمَارَسَاتِ النَّاجِعَةِ لِلْإِدَارَةِ وَمَنْطِقِ السُّوقِ إِلَى الْمَجَالِ السِّيَاسِيِّ.⁴²

لَا تُفْلِتُ الدِّيمُقْرَاطِيَّةُ الْقَائِمَةُ عَلَى الْمُشَارَكَةِ مِنَ الْمُنْطِقِ الْاجْتِمَاعِيِّ السَّائِدِ فِي أَسَالِيبِ الْمُشَارَكَةِ السِّيَاسِيَّةِ الْآخَرَى، إِذْ تُظْهِرُ الْعَدِيدُ مِنَ التَّجَارِبِ فِي دِيمُقْرَاطِيَّةِ الْأَحْيَاءِ أَنَّ الطَّبَقَاتِ الْأَكْثَرُ ثَرَاءً، ذَاتِ الرُّأْسَمَالِ الثَّقَافِيِّ الْكَبِيرِ، هِيَ الَّتِي تُشَارِكُ فِي هَذَا النَّوعِ مِنَ النِّظَامِ الدِّيمُقْرَاطِيِّ، أَمَّا فِي أَحْيَاءِ الطَّبَقَةِ الْعَامِلَةِ، فَإِنَّ الْفَنَاتِ الْفَقِيرَةَ وَالْأَجَانِبَ الْمُفْتَقِرُونَ غَايَةَ الْاِفْتِقَارِ إِلَى هَذِهِ الْأَلْيَاتِ التَّشَارِكِيَّةِ، بَيْنَمَا يَتَخَلَّى الشَّبَابُ الَّذِينَ لَا تَرِيدُ أَوْضَاعَهُمُ الْمَادِيَّةَ إِلَّا سُوءًا عَنْ هَذِهِ الْهَيَاكِلِ. وَمَعَ ذَلِكَ، فَإِنَّ هَذِهِ الْفَنَاتِ الْمَحْرُومَةَ وَالْأَكْثَرُ ضَعْفًا مِنَ السُّكَّانِ تَحْصُدُ بِوَجْهِ خَاصٍّ عَوَاقِبَ الْقَرَارَاتِ الْمُتَّخَذَةِ فِي تَلَكُمِ الْهَيَاكِلِ.

بِمُسْتِطَاعِنَا طَرَحَ عِدَّةِ عَوَامِلَ لِشَرْحِ هَذِهِ الظَّاهِرَةِ: الْعَامِلُ الْأَوَّلُ اِقْتِصَادِيٌّ؛ إِذْ تَسْتَعْرِقُ الْمُشَارَكَةُ وَقْتًا، بَيْنَمَا هَذِهِ الْفَنَةُ مِنَ السُّكَّانِ تَفْتَقِرُ عُمُومًا إِلَى الْوَقْتِ. وَتُقَلِّلُ السُّلْطَاتُ الْعَامَّةُ عُمُومًا مِنْ تَقْدِيرِ هَذِهِ التَّكْلُفَةِ. وَلِمُعَالَجَةِ ذَلِكَ، يُمَكِّنُ النَّظَرُ فِي التَّعْوِيزِ؛ وَلَيْسَ ذَلِكَ مِنْ بَابِ دَفْعِ الْمَالِ، لِيَكُونَ الْمَرْءُ مُوَاطِنًا، بَلْ مِنْ بَابِ دَفْعِ أَجْرِ خَبْرَةٍ مُعَيَّنَةٍ تَتَطَلَّبُ مِنْ سُلْطَاتِ الدَّوْلَةِ الْاِسْتِثْمَارَ فِيهَا.

مِمَّا لَا يَغْرُبُ عَنَّا هُنَا، فِي سِيَاقِ الْحَدِيثِ عَنْ عَقَبَاتِ الدِّيمُقْرَاطِيَّةِ التَّشَارِكِيَّةِ، التَّفَاوُتُ الرَّمَزِيُّ بَيْنَ الْمَوَاطِنِينَ فِي الرُّأْسَمَالِ الثَّقَافِيِّ الَّذِي بِهِ يُنَاطُ إِمْكَانُ التَّحَدُّثِ عَلَانِيَّةً فِي الْفَضَاءِ الْعَامِّ، مِنْ حَيْثُ هُوَ قُدْرَةُ رَمَزِيَّةٌ وَمَعْنَوِيَّةٌ يَتَفَاضَلُ فِيهَا الْفَاعِلُونَ الْاجْتِمَاعِيُّونَ؛ وَهَذَا الرُّأْسَمَالُ الثَّقَافِيُّ عِبَارَةٌ عَنْ مَجْمُوعِ الْمَعَارِفِ وَالْمَهَارَاتِ وَالْمَوَاقِفِ الَّتِي مِنَ الْمَكْنَةِ تَعَبَّتُهَا، فِي هَذِهِ الْحَالَةِ، لِإِبْدَاءِ رَأْيٍ مُعَيَّنٍ؛ وَلَيْسَ غَرِيبًا أَنْ يَكُونَ الْاِفْتِقَارُ

إليه من الأسباب التي تحول دون مشاركة الكثير من المواطنين. إذ غالبًا ما يستبعد المواطنون الأكثر فقرًا أنفسهم من المناقشة، ذلك أنهم لا يتقنون الخطاب الخاص الذي تطرحه الجهات الفاعلة الأخرى. لعلمهم يشعرون بالخوف من السخرية، لأنهم لا يملكون القدرة نفسها على التعبير عن أنفسهم مثل الآخرين. وفي هذا السياق، يحسّر عليهم أن يثقوا بأنفسهم. وإلى جانب هذا السبب، هناك أيضًا شعور بأن وجودهم قليل الفائدة، يُغذيه عدم الثقة في كل ما تضطلع به السلطة العامة. ومن ثم، فإن الخطاب لا تزال مشروطة بقدر هائل بمقدار الاندماج الاجتماعي⁴³.

2.3 الممارسة الديمقراطية من منظور النظريات التداولية théories délibératives

لما بلغ الفكر السياسي في أواخر القرن العشرين مرحلة شعر فيها بقصور النماذج القائمة عن تفسير حقيقة العمل الديمقراطي، برز ما أطلق عليه «المنعطف التداولي» le « tournant délibératif » في ثمانينيات القرن العشرين، فافتتح أفق نظري جديد سعى إلى أن يتخذ لنفسه موضعًا وسطًا بين منظورين متقابلين: أولهما التصور التجميعي للديمقراطية الليبرالية conception agrégative de la démocratie libérale، الذي يختزل السياسة في جمع التفضيلات الفردية وترجيحها، وثانيهما الرؤية الإندماجية التي يميل إليها بعض أنساق الفكر التشاركي vision fusionnelle des pensées participatives، حيث تدوب الفروق بين الأفراد في تصور جماعي متمم.

وعلى خلاف هذين النموذجين، تُقيم النظريات التداولية théories délibératives مبدأها الأساسي على أن القرار الديمقراطي لا ينبغي أن ينبثق من مجرد حساب للتفضيلات، ولا من إجماع يدوب فيه الاختلاف، بل من مناقشة عقلانية discussion rationnelle تجري بين مواطنين متساوين في منزلة، متوقفين على قدر كافٍ من المعرفة والاطلاع citoyens égaux et informés، يتبادلون فيها الحجج ويختبرون مشروعية الآراء.

ومن ثم لا يكون الخيار الجماعي choix collectif ديمقراطيًا لأنه يجسد تفضيلات المواطنين فحسب، بل لأنه ينبثق من نقاش يتصف بالجوادة والعمق. وبعبارة أدق: ليس جوهر الديمقراطية في محض الإفصاح عن الإرادة السياسية، وإنما في الكيفية التي تتكون بها هذه الإرادة في ظل عملية متواصلة من التداول processus de délibération.

ومن هنا ترفض النظرية التداولية الفرعية القائلة إن التفضيلات الفردية والمصالح قد تشكلت سلفًا قبل أن يبدأ النقاش؛ بل تذهب إلى أنها لا تتخلق إلا في أثناء ذلك النقاش نفسه، إذ تتحول وتتبدل عندما تتواجه في سياق تبادل عقلائي للحجج المتعارضة échange rationnel d'arguments contradictoires، وهو تبادل يسعى - في مساره النهائي - إلى بلوغ قدر من التوافق consensus الذي لا ينفي الاختلاف بل ينظمه.

وَإِذَا كَانَ هَذَا التَّوَجُّهُ قَدْ أَخَذَ فِي الْإِتْسَاعِ وَالتَّشَعُّبِ فِي الْفِكْرِ السِّيَاسِيِّ الْمُعَاصِرِ، فَإِنَّ الْبَادِئَةَ فِي صِيَاغَتِهِ النَّظَرِيَّةِ تُنْسَبُ- فِي الْغَالِبِ - إِلَى الْفِيلَسُوفِ الْأَلْمَانِيِّ يُوْرَغِن هَابِرْمَاس Jürgen Habermas، الَّذِي يُعَدُّ مِنْ أَبْرَزِ الْمُبَادِرِينَ إِلَى بُلُوْرَةِ هَذَا «الْمَنْعَطِفِ التَّدَاوُلِيِّ». وَعَلَى أَسَاسِ هَذَا التَّأْسِيسِ سَنَبْدَأُ بِعَرْضِ مَعَالِمِ نَظَرِيَّتِهِ، ثُمَّ نَنْتَقِلُ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى بَعْضِ الْإِمْتِدَادَاتِ الْأَحْدَثِ لِهَذَا التَّوَجُّهِ كَمَا طَوَّرَهَا كُلُّ مَنْ دِيفِيدِ إِسْتَلَنْد David Estlund، وَإِيرِيس مَارِيُون يُونُغ Iris Marion Young.

1.2.3 الدِّيمُقْرَاطِيَّةِ التَّدَاوُلِيَّةِ عِنْدَ يُوْرَغِن هَابِرْمَاسِ بَيْنَ إِيْتِيْقَا الْمُنَاقَشَةِ وَضَوَابِطِ الْمُمَارَسَةِ السِّيَاسِيَّةِ
لَا رَيْبَ أَنَّ فِكْرَ يُوْرَغِن هَابِرْمَاسِ أَرْحَبُ أَفْقًا وَأَبْعَدُ مَدًى مِنَ الْحُدُودِ الَّتِي اضْطُرَّتْ هَهُنَا أَنْ أَتْرَسَمَهَا فِي هَذِهِ الْمَقَالَةِ؛ فَلَوْ أَطْلُقُ لِهَذَا الْفِكْرِ أَنَّ يَسِيرَ فِي مَسَالِكِهِ كَلِّهَا لَنَجِدَ لِنَفْسِهِ مَوَاطِنَ عِدَّةٍ فِي ثَنَائَا هَذَا الْعَرْضِ، وَلَنَبْسِطَ فِي أَبْوَابِ شَيْءٍ مِنَ الْفِكْرِ السِّيَاسِيِّ وَالْأَخْلَاقِيِّ وَالْمَعْرِفِيِّ. غَيْرَ أَنَّ نَظَرِيَّتَهُ فِي الدِّيمُقْرَاطِيَّةِ التَّدَاوُلِيَّةِ تَبْدُو لَنَا أَصْلَحَ مَدْخَلٍ إِلَى فَهْمِ مَشْرُوعِهِ الْفِكْرِيِّ، وَأَقْدَرُ بَابٍ نَلِجُ مِنْهُ إِلَى عَالَمِهِ النَّظَرِيِّ، إِذْ تُجَلِّي فِي الْآيِ عَيْنِهِ جَوْهَرُ مَسْئَلَةِ الْفَلَسَفِيِّ، وَتُظْهِرُ طُمُوحَهُ إِلَى تَجَاوُزِ ذَلِكَ التَّعَارُضِ الْمُزْمِنِ الَّذِي لَبِثَ مَلِيًّا بَيْنَ الْمَذْهَبَيْنِ اللَّيْبَرَالِيِّ وَالْجُمْهُورِيِّ.

وَلِذَلِكَ سَنَحَاوِلُ أَنْ نَسِيرَ فِي بَيَانِ هَذِهِ النَّظَرِيَّةِ سَيْرًا مُتَدَرِّجًا، نَنْتَقِلُ فِيهِ مِنَ الْأَصُولِ إِلَى الْفُرُوعِ، وَمِنْ الْمُبَادِيِ إِلَى التَّطْبِيقَاتِ. فَنَبْدَأُ بِتَتَبُّعِ السَّبِيلِ الَّذِي بَسَطَ بِهِ نَظَرِيَّتَهُ فِي «الْفِعْلِ التَّوَاصُلِيِّ agir communicationnel»، حَيْثُ تَتَفَرَّعُ هَذِهِ النَّظَرِيَّةُ إِلَى مِيدَانَيْنِ مُتَمَايِزَيْنِ يَلْتَقِيَانِ فِي الْأَصُولِ وَيَفْتَرِقَانِ فِي الْمَقَاصِدِ.

أَمَّا أَوَّلُهُمَا فَهُوَ مِيدَانُ الْأَخْلَاقِ، وَفِيهِ شَيَّدَ هَابِرْمَاسُ مَا عُرِفَ فِيْمَا بَعْدُ بِـ «أَخْلَاقِ الْمُنَاقَشَةِ»، وَهِيَ نَظَرِيَّةٌ تَرَى أَنَّ الْمَشْرُوعِيَّةَ الْأَخْلَاقِيَّةَ لَا تَنْبَغُ مِنْ سُلْطَةٍ فَوْقِيَّةٍ، وَإِنَّمَا تَنْشَأُ مِنْ قُدْرَةِ الْأَفْرَادِ عَلَى تَبَادُلِ الْحُجَجِ فِي فَضَاءِ جَوَارِي حُرٍّ. وَأَمَّا ثَانِيَهُمَا فَهُوَ مِيدَانُ السِّيَاسَةِ، وَفِيهِ تَبْلُغُ هَذِهِ الْفِكْرَةُ ذِرْوَتَهَا حِينَ تَتَحَوَّلُ إِلَى نَظَرِيَّةٍ فِي الدِّيمُقْرَاطِيَّةِ التَّدَاوُلِيَّةِ، حَيْثُ يَغْدُو التَّدَاوُلُ الْعَقْلَانِيُّ بَيْنَ الْمَوَاطِنِينَ أَسَاسَ الْمَشْرُوعِيَّةِ السِّيَاسِيَّةِ وَمَصْدَرِ الْقَرَارِ الْجَمَاعِيِّ.

وَهَكَذَا يَتَبَيَّنُ أَنَّ نَظَرِيَّةَ هَابِرْمَاسِ فِي الدِّيمُقْرَاطِيَّةِ لَا تَكُونُ مَفْهُومَةً فَهْمًا تَامًا إِلَّا إِذَا نُظِرَ إِلَيْهَا فِي ضَوْءِ مَشْرُوعِهِ الْأَوْسَعِ، أَيِّ فِي إِطَارِ نَظَرِيَّتِهِ فِي الْفِعْلِ التَّوَاصُلِيِّ الَّتِي تُرِيدُ أَنْ تَجْعَلَ الْعَقْلَانِيَّةَ الْجَوَارِيَّةَ أَسَاسًا لِلنِّظَامِ الْأَخْلَاقِيِّ وَالسِّيَاسِيِّ عَلَى السَّوَاءِ.

أ- التَّدَاوُلُ وَالضُّوَابِطُ الصُّورِيَّةُ لِلْمُنَاقَشَةِ

تَتَّبِعِي نَظَرِيَّةَ أَخْلَاقِ الْمُنَاقَشَةِ عِنْدَ الْفِيلَسُوفِ الْأَلْمَانِيِّ يُوْرَغِن هَابِرْمَاسِ عَلَى بِنَاءِ مَعْيَارِيٍّ مُتَدَرِّجٍ يَتَأَسَّسُ عَلَى مَبْدَأَيْنِ مُتَرَاتِبَيْنِ فِي سُلْمِ التَّأْسِيسِ النَّظَرِيِّ. فَأَمَّا أَوَّلُهُمَا فَهُوَ مَبْدَأُ التَّعْمِيمِ (principe U)، وَهُوَ مَبْدَأٌ يَسْتَلْهِمُ رُوحَ الْأَمْرِ الْأَخْلَاقِيِّ الْقَاطِعِ عِنْدَ الْفِيلَسُوفِ الْأَلْمَانِيِّ إِمَانُوئِيلِ كَانُط، إِذْ يَقْضِي بِأَنَّ صِحَّةَ أَيِّ قَاعِدَةٍ أَخْلَاقِيَّةٍ

مَوْفُوفٌ عَلَى قُدْرَتِهَا عَلَى أَنْ تُقْبَلَ قَبُولًا حُرًّا مِنْ قِبَلِ جَمِيعِ الْأَشْخَاصِ الْمَغْنِيِّينَ بِهَا، بَعْدَ النَّظَرِ فِي جَمِيعِ تَبِعَاتِهَا وَأَثَارِهَا الْجَانِبِيَّةِ عِنْدَ تَعْمِيمِهَا عَلَى الْكُلِّ. وَعَلَى هَذَا الْأَسَاسِ يَكْتُبُ هَابِرْمَاس: «يَجِبُ أَنْ يَسْتَوْفِيَ كُلُّ مِغْيَارٍ صَالِحٍ الشَّرْطَ الَّذِي يُفِيدُ أَنَّ التَّبِعَاتِ وَالْآثَارَ الْجَانِبِيَّةَ، الَّتِي تَنْجُمُ عَلَى نَحْوِ مُتَوَقَّعٍ مِنَ الْاِمْتِنَالِ الْكُونِيِّ لَهَا بِقَصْدٍ خِدْمَةِ مَصَالِحِ كُلِّ وَاحِدٍ، يَجِبُ أَنْ تَكُونَ مَقْبُولَةً دُونَ إِكْرَاهٍ مِنْ قِبَلِ جَمِيعِ الْأَشْخَاصِ الْمَغْنِيِّينَ.»⁴⁴

وَلَمَّا كَانَ هَذَا الْمَبْدَأُ يَجْعَلُ مِغْيَارَ الصِّحَّةِ الْأَخْلَاقِيَّةِ مُوَكَّوَلًا إِلَى إِمْكَانِ الْحُصُولِ عَلَى تَوَافُقٍ عَامٍّ، فَإِنَّهُ يَسْتَدْعِي مَبْدَأً ثَانِيًا يَتَحَوَّلُ فِيهِ ذَلِكَ الْمِغْيَارُ النَّظَرِيُّ إِلَى إِجْرَاءٍ عَمَلِيٍّ؛ وَهُوَ مَبْدَأُ الْمُنَاقَشَةِ (principe D)، الَّذِي يَنْصُ عَلَى أَنَّ أَيَّ قَاعِدَةٍ لَا تَكُونُ صَحِيحَةً إِلَّا إِذَا اسْتَطَاعَ جَمِيعُ الْأَشْخَاصِ الْمَغْنِيِّينَ أَنْ يُوَافِقُوا عَلَمًا فِي سِيَاقٍ نَقَاشٍ عَمَلِيٍّ حُرٍّ. وَفِي هَذَا السِّيَاقِ يَقُولُ هَابِرْمَاس: «كُلُّ مِغْيَارٍ صَالِحٍ يَنْبَغِي أَنْ يَجِدَ مُوَافَقَةً جَمِيعِ الْمَغْنِيِّينَ شَرْطًا أَنْ يُشَارِكُوا فِي نَقَاشٍ عَمَلِيٍّ»⁴⁵.

وَفِي هَذَا الْاِقْتِرَافِ بَيْنَ الْمَبْدَأَيْنِ تَتَجَلَّى مُحَاوَلَةُ هَابِرْمَاسِ لِنَجَاوِزِ الْبُزْجِ الْفِلَسْفِيِّ بَيْنَ النَّظَرِيَّاتِ التَّعَاقُديَّةِ وَالتَّعَاقُديَّةِ contractuales والنَّزَعَاتِ الْجَمَاعَاتِيَّةِ communitariens؛ أَيُّ بَيْنَ مَنْ يَدْعُونَ إِلَى عَالَمِيَّةِ أَخْلَاقِيَّةٍ صَرَفَةٍ، وَمَنْ يُؤَكِّدُونَ أَنَّ الْقِيَمَ الْأَخْلَاقِيَّةَ لَا تُفْهَمُ إِلَّا فِي سِيَاقِ الْأُطُرِ الثَّقَافِيَّةِ وَالتَّارِيخِيَّةِ الْمُحَدَّدَةِ. فَهَابِرْمَاسُ يَعْتَرِفُ أَوَّلًا بِوَجَاهَةِ النِّقْدِ الَّذِي يُوجِّهُهُ الْجَمَاعَاتِيُّونَ إِلَى النَّزْعَةِ التَّعَاقُديَّةِ، إِذْ يَقُولُ: «إِنَّ الْإِبْرَازَ الدِّيُونُطُولُوجِيَّ لِلْوَاجِبِ بِاعْتِبَارِهِ الظَّاهِرَةَ الْأَخْلَاقِيَّةَ الْأَسَاسِيَّةَ، يَجْعَلُ الْفَصْلَ التَّجْرِيدِيَّ بَيْنَ الصَّحِيحِ وَالْخَيْرِ، وَبَيْنَ الْوَاجِبِ وَاللَّافِعِلِ، أَمْرًا لَا مَهْرَبَ مِنْهُ. وَيُفْضِي ذَلِكَ إِلَى التَّجَرُّدِ مِنَ الدَّوَافِعِ الَّتِي يَتَطَلَّلُهَا الْفِعْلُ فِي كُلِّ مَرَّةٍ. [...] وَيُؤَدِّي هَذَا أَيْضًا إِلَى التَّجَرُّدِ مِنَ الْحَيَاةِ الْأَخْلَاقِيَّةِ الَّتِي لَا يُمَكِّنُ أَنْ تَتَّخِذَ سُكْلًا مُلْمُوسًا إِلَّا فِي أَشْكَالٍ خَاصَّةٍ مِنَ الْحَيَاةِ.»⁴⁶

غَيْرَ أَنَّهُ، فِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ، لَا يَتَخَلَّى عَنِ الْمَطْلَبِ الْعَالَمِيِّ؛ بَلْ يَرَى أَنَّ الْهُويَّةَ الْإِنْسَانِيَّةَ وَالْمَعْنَى الْمَشْتَرَكَ لِلْحَيَاةِ لَا يَتَكَوَّنَانِ إِلَّا فِي سِيَاقِ الْإِنْتِمَاءِ إِلَى جَمَاعَةٍ تَوَاصُلِيَّةٍ تَسُودُهَا رُوحُ التَّضَامُنِ. وَفِي هَذَا يَقُولُ: «كُلُّ مَطْلَبٍ تَعْمِيمٍ يَبْقَى عَاجِزًا إِلَّا إِذَا نَتَجَ مِنَ الْإِنْتِسَابِ إِلَى جَمَاعَةٍ مِثَالِيَّةٍ لِلتَّوَاصُلِ، مِنْ وَعْيٍ بِتَضَامُنٍ رَاسِخٍ، وَيَقِينٍ بِالْإِنْتِمَاءِ الْأَخْوِيِّ إِلَى سِيَاقِ حَيَاةٍ مُشْتَرَكٍ.»⁴⁷

وَمِنْ هُنَا يَرْفُضُ هَابِرْمَاسُ أَيْضًا الْعُودَةَ إِلَى التَّمَاذِجِ الْكُلِّيَّةِ لِلْفِكْرِ الْأَرِسْطِيِّ، لَا سِيَّمَا فِي عَالَمٍ وَصَفَهُ الْفِيلَسُوفُ الْأَمْرِيكِيُّ جُون رُولز John Rawls بـ«وَقَاعِ التَّعَدُّدِ fait du pluralisme»، حَيْثُ لَا يُمَكِّنُ إِخْضَاعُ أَشْكَالِ الْحَيَاةِ الْمُخْتَلِفَةِ لِتَرَاتِبٍ وَاحِدٍ يَفْرُضُ نَمَطًا وَاحِدًا مِنْ مَفْهُومِ الْخَيْرِ.

وَمَعَ ذَلِكَ، تَحْمِلُ كُلُّ مُمَارَسَةٍ تَوَاصُلِيَّةٍ طَائِعًا مُزْدَوَجًا: فَالْمُشَارَكُونَ فِيهَا يَنْقُودُونَ أَعْضَاءَ فِي جَمَاعَاتٍ تَارِيخِيَّةٍ مُحَدَّدَةٍ، بِقَدْرِ مَا هُمْ أَيْضًا أَعْضَاءَ فِي جَمَاعَةٍ مِثَالِيَّةٍ لِلتَّوَاصُلِ تَعْدُو الْحُدُودَ الزَّمَانِيَّةَ وَالْمَكَانِيَّةَ؛ وَهُوَ مَا

يُسَمِّيهِ هَابِرْمَاسُ «الْإِزَالَةَ الْمِثَالِيَّةَ لِلْحَوَاجِزِ» Décloisonnement idéalisant.⁴⁸

وَهَكَذَا يُؤْمَنُ مَبْدَأُ التَّعْمِيمِ (U) مَطْلَبُ الْعَالَمِيَّةِ، فِي حِينٍ يُحَوَّلُ مَبْدَأُ النِّقَاشِ (D) هَذَا الْمَطْلَبَ إِلَى شَرْعِيَّةٍ عَمَلِيَّةٍ تَنْجُمُ مِنَ الْجَوَارِ الْحُرِّ بَيْنَ الْأَفْرَادِ. وَعَلَى هَذَا النَّحْوِ تَعْدُو الْمُنَاقَشَةُ الْعَقْلَانِيَّةُ وَسِيلَةً لِبُلُوغِ الْكُونِيَّةِ

دُونَ إِهْمَالِ الْخُصُوصِيَّةِ الثَّقَافِيَّةِ، وَتُصْبِحُ عَمَلِيَّةُ تَشَكُّلِ الْإِرَادَةِ الْجَمَاعِيَّةِ مُنَوَّطَةً بِأُسُسٍ تُرَاعِي مَصَالِحَ الْجَمِيعِ وَتَحْفَظُ تَمَاسُكَ النِّسْجِ الْاجْتِمَاعِيِّ.

ب- مَبَانِي الدِّيمُقْرَاطِيَّةِ التَّدَاوُلِيَّةِ عِنْدَ هَابِرْمَاس

يُطَبِّقُ هَابِرْمَاسٌ فِي كِتَابِهِ «الْحَقُّ وَالدِّيمُقْرَاطِيَّةُ» Droit et Démocratie «مَبَادِي الْفِعْلِ التَّوَاصُلِيِّ عَلَى مِيدَانِ الْقَانُونِ وَالْحُكْمِ السِّيَاسِيِّ. وَبِأَفْضَالِ هَذِهِ الْمُحَاوَلَةِ يُقَاوِمُ هَابِرْمَاسٌ سَوَاءً بِسَوَاءِ النَّزْعَةِ «الْلِّبَرَالِيَّةِ» الَّتِي تَبْنِي الشَّرْعِيَّةَ عَلَى تَجْمِيعِ تَفْصِيَلَاتِ الْأَفْرَادِ، وَالنَّزْعَةِ «الْجُمْهُورِيَّةِ» الَّتِي تَخْتَرِلُ الْفَاعِلَ السِّيَاسِيَّ إِلَى كَلِّيَّةٍ تَطْمِسُ الْخُصُوصِيَّاتِ.

فِي مِيدَانِ الْقَانُونِ، يَسْتَعِضُ هَابِرْمَاسٌ عَنِ الثَّنَائِيَّةِ الْمُتَوَازِنَةِ بَيْنَ مَبْدَأِ التَّعْميمِ وَمَبْدَأِ الْمُنَاقَشَةِ بِتَأْكِيدِ أَقْوَى عَلَى رَاجِحِيَّةِ مَبْدَأِ الْمُنَاقَشَةِ D ؛ مُقَادُ ذَلِكَ أَنَّ الصَّلَاحِيَّةَ الْقَانُونِيَّةَ مَوْقُوفَةٌ عَلَى نُجُومِهَا مِنْ نِقَاشَاتِ قَانُونِيَّةٍ حَقِيقِيَّةٍ تُتَبَحُّ لِكُلِّ عَضْوٍ تَصُوبُ مِنْظُورَهُ، وَإِصْلَاحُ رَأْيِهِ، وَتَعْدِيلُ مَوْفِقِهِ بِمُقْتَضَى وَجْهَةِ نَظَرِ الْآخَرِينَ بِنَاءً عَلَى مُنَاقَشَةٍ رَشِيدَةٍ. بِعِبَارَةٍ آخَرٍ: لَيْسَ كَافِيَاً أَنْ تَكُونَ الْقَاعِدَةُ «قَابِلَةً لِلتَّعْميمِ» فَقَطْ؛ وَإِنَّمَا يَجِبُ أَنْ تَخْضَعَ لِحَلْفَةِ نِقَاشٍ تُؤَلِّدُ التَّوَافُقَ الشَّرْعِيَّ. فِي مَقَامِ ذَلِكَ، يُعْرَبُ قَانِنًا: لَا يُمْكِنُ أَنْ تَدْعِي الصَّلَاحِيَّةَ الشَّرْعِيَّةَ إِلَّا الْقَوَانِينَ الْقَانُونِيَّةَ lois juridiques الْقَادِرَةِ، فِي إِطَارِ عَمَلِيَّةِ تَأْسِيسِ الْقَانُونِ بِوَاسِطَةِ النِّقَاشِ الَّتِي أُقِيمَتْ ذَاتَهَا مِنْ مَنْظُورٍ قَانُونِيٍّ، أَنْ تَجِدَ مُوَافَقَةً جَمِيعِ الْأَعْضَاءِ الْقَانُونِيِّينَ».⁴⁹

يَنْتَقِدُ هَابِرْمَاسٌ الْبُنْيَ الْوَحْدِيَّةَ الَّتِي تَبْنِي الْفَاعِلَ قِيَاسًا إِلَى عِيَارٍ فَرْدِيٍّ بِحَسَبِ مَصَالِحِهِ فَقَطْ (النَّمَطُ اللَّيْبَرَالِيُّ)، وَيَشْجُبُ أَيْضًا التَّحَوُّلَ الْمُفْرِطَ إِلَى فَاعِلٍ كَلِّيٍّ يُلْغِي تَفَرُّدَاتِ الْأَشْخَاصِ (النَّمَطُ الْجُمْهُورِيُّ). بَدَلُ ذَلِكَ، يَفْتَرِحُ صِبَاغَةً عَلَائِقِيَّةً لِـ «السَّرِيرَةِ السِّيَاسِيَّةِ»: الْفَاعِلُ فِي مَطَاوِي شَبَكَةِ تَفَاعُلَاتٍ يُشِيدُ مَنْظُورَاتِهِ وَخِيَارَاتِهِ فِي عُرْضِ الْخِطَابِ وَالتَّدَاوُلِ.

إِنَّ الْمَحْوَرَ الَّذِي تَتَعَقَّدُ حَوْلَهُ الْمُدَاوَلَاتُ الْجَمَاعِيَّةُ فِي نَظَرِيَّةِ الدِّيمُقْرَاطِيَّةِ التَّدَاوُلِيَّةِ هُوَ الْفَضَاءُ الْعَامُّ Public Sphere / espace public، وَهُوَ لَيْسَ حَيْرًا جُغْرَافِيًّا فَحَسَبَ، بَلْ بَنِيَّةٌ اِتِّصَالِيَّةٌ حَيَّةٌ تَتَكَثَّفُ فِيهَا الْأَصْوَاتُ وَتَتَشَكَّلُ فِيهَا الْأَرَءَاءُ. فَعِنْدَ يُونِغْنِ هَابِرْمَاسَ، يُفْهَمُ هَذَا الْفَضَاءُ عَلَى أَنَّهُ شَبَكَةٌ مُتَشَابِكَةٌ مِنَ التَّوَاصُلِ تَتَدَفَّقُ فِيهَا الْمَعَانِي وَالْمَوَاقِفُ، ثُمَّ تُصَفَّى وَتُكثَّفُ حَتَّى تَتَبَلَّوَرُ فِي صُورَةِ رَأْيٍ عَامٍّ قَادِرٍ عَلَى تَشْكِيلِ الْإِرَادَةِ الْجَمَاعِيَّةِ. وَفِي هَذَا السِّيَاقِ يَقُولُ هَابِرْمَاسُ: «الْفَضَاءُ الْعَامُّ هُوَ شَبَكَةٌ تَسْمَحُ بِنَقْلِ مَضَامِينِ وَمَوَاقِفَ مُتَّخَذَةٍ، وَمِنْ ثَمَّ نَقْلَ آرَاءٍ؛ حَيْثُ تُرْشَّحُ تَدَفُّقَاتُ التَّوَاصُلِ وَتُلَخَّصُ بِطَرِيقَةٍ تَجْعَلُهَا تَتَكَثَّفُ فِي آرَاءٍ عُمُومِيَّةٍ حَسَبَ مَوْضُوعٍ مُعَيَّنٍ».⁵⁰

ج- الْفَضَاءُ الْعَامُّ وَالدِّيمُقْرَاطِيَّةُ التَّدَاوُلِيَّةُ عِنْدَ يُونِغْنِ هَابِرْمَاس

مُسْتَعِيرًا التَّمْيِيزَ الَّذِي اقْتَرَحَتْهُ الْفِيلَسُوفَةُ الْأَمْرِيكِيَّةُ نَانْسِي فَرِيزَر Nancy Fraser، يُفَرِّقُ هَابِرْمَاسٌ بَيْنَ نَوْعَيْنِ مِنَ الْفَضَاءِ الْعَامِّ:

1. الْفَضَاءُ الْعَامُّ الْقَوِيُّ Strong Public Sphere

وَهُوَ الْفَضَاءُ الْمُؤَسَّسِيُّ الَّذِي تَتَجَسَّدُ فِيهِ الْمَمارَسَةُ السِّياسِيَّةُ الرَّسْمِيَّةُ، كَالْمَجَالِسِ النِّيابِيَّةِ وَالْبُرْلكاناتِ. فِي هَذَا الْفَضَاءِ تَتَحَوَّلُ الْمَدَاولاتُ إِلَى قَراراتٍ مُلْزِمَةٍ، وَتُصاغُ الْقَوانِينُ وَالسِّياساتُ الْعامَّةُ.

2. الْفَضَاءُ الْعامُّ الضَّعِيفُ Weak Public Sphere

وَهُوَ الْفَضَاءُ اللامركزي الَّذِي يَنْتَشِرُ فِي ثَنائِا الْحياةِ الْاجْتِماعِيَّةِ: وَسايلُ الْإِعلامِ وَالْجَمْعِيَّاتُ وَالْمُنْظَماتُ الْمَدْنِيَّةُ وَمُنْتَدَياتُ الْنِقاشِ، وَحَتَّى الْجَواراتُ الْيَومِيَّةُ غَيْرُ الرَّسْمِيَّةِ كالأَحاديثِ فِي الْمَقاهي وَالسَّاحاتِ. وَهَذَا الْفَضاءُ، عَلى ضَعْفِهِ الْمُؤَسَّسِيِّ، يُعَدُّ أَكْثَرُ حَيَويَّةً، لِأَنَّهُ يُمَكِّنُ الْمُجْتَمَعَ مِنْ رَصْدِ الْمُشْكِلاتِ الْجَدِيدَةِ وَتَحْفِيزِ الْنِقاشِ فِيها قَبْلَ أَنْ تَبْلُغَ الْمُؤَسَّساتُ الرَّسْمِيَّةُ.

لَا يَنْبَغِي لِهَذَا الْفَضاءِ الضَّعِيفِ أَنْ يَكُونَ مُجَرَّدَ «رواقٍ لِلْبُرْلكانِ» vestibule du Parlement؛ وَإِنَّمَا يَنْبَغِي أَنْ يَحْتَفِظَ بِاسْتِقْلالِهِ الْنِقاشِيِّ. فَفِي هَذِهِ السَّاحةِ، تَتَكَوَّنُ آراءُ عُمُومِيَّةٌ غَيْرُ خاضِعَةٍ لِلسُّلْطةِ، قادِرَةٌ عَلى مُساءلةِ الْمُؤَسَّساتِ السِّياسِيَّةِ وَمُطالَبَتِها بِالتَّبريرِ. وَلِذلكُمْ يَصِفُ هابِرْماسُ السُّلْطةَ السِّياسِيَّةَ فِي حَتَّى هَذِهِ الْمَراقِبَةِ الْعُمُومِيَّةِ بِأَنَّها «قَلْعَةٌ مُحاصِرَةٌ»؛ أَيُ إِنَّ شَرْعِيَّتَها تَبْقَى مَرْهُونَةً بِقُدْرَتِها عَلى تَبْريْرِ أَفعالِها أَمامَ الرِّأيِ الْعامِّ.

يَنْتَهِي وُجُودُ هَذِهِ الْفَضاءاتِ التَّواصُليَّةِ إِلَى إِعادَةِ تَصَوُّرِ سِيادةِ الشَّعبِ. فَلَمَّ تَعُدَّ هَذِهِ السِّيادةُ تَتَحَقَّقُ فِي هَيْئَةٍ مُوحَّدةٍ مِنَ الْمُواطِنِينَ الْمُسْتَقْلِلِينَ، بَلْ أَصْبَحَتْ تَنْتَشِرُ فِي شَبْكاتِ التَّواصُلِ وَالنِّقاشِ الَّتِي تُشْكِلُ الرِّأيَ الْعامَّ. وَفِي هَذَا السِّياقِ يَكْتُبُ هابِرْماسُ: «لَا تَتَجَسَّدُ سِيادةُ الشَّعبِ بَعْدُ فِي هَيْئَةٍ مُحدَّدةٍ مِنَ مُواطِنِينَ مُسْتَقْلِلِينَ؛ وَإِنَّمَا تُسَجَّبُ إِلَى الدَّورِ الْإِتْصاليَّةِ- حَيْثُ تُدارُ الْجَواراتُ الْعُمُومِيَّةُ وَالْهَيْئاتُ، وَكَانَتْها بِلَا قَوايلٍ⁵¹». فَالسِّيادةُ - بِهذا الْمَعْنى - لَيْسَتْ جِسمًا سِياسِيًّا مَجْسدًا، بَلْ عَمَلِيَّةٌ تَواصُليَّةٌ مُسْتَمْرَّةٌ.

فِي مُواجَهَةِ السُّلْطةِ الْإِدارِيَّةِ الَّتِي تُمَثِّلُها الْمُؤَسَّساتُ الْبِيرُوقْراطِيَّةُ، يَظْهَرُ ما يُسَمِّيهِ هابِرْماسُ «القُوَّةَ التَّواصُليَّةَ Communicative Power. وهَذِهِ القُوَّةُ لَا تُنشَأُ فِي الدَّولَةِ بَلْ فِي الْمُجْتَمَعَ الْمَدْنِيِّ. وَهِيَ تَعْمَلُ عَلى مُسْتَوَيْنِ مُتْكامِلَيْنِ: فَضاءٍ عامٍّ غَيْرِ رَسْمِيِّ يَتَمَثَّلُ فِي الْحَرَكاتِ الْاجْتِماعِيَّةِ وَالْجَمْعِيَّاتِ وَسايلِ الْإِعلامِ، وَهُوَ فَضاءٌ يُمَكِّنُ الْمُواطِنِينَ مِنْ اكْتِشافِ الْمُشْكِلاتِ الْجَدِيدَةِ وَمُواجَهَتِها بِنَقْدِ عَقْلانِيٍّ مُسْتَنِيرٍ. فَضاءٌ عامٌّ مُؤَسَّسٌ وَقَوِيٌّ يَتَمَثَّلُ فِي الْمُؤَسَّساتِ التَّشْرِيعِيَّةِ وَالسِّياسِيَّةِ، وَهُوَ ضَرْوَرِيٌّ لِتَحْويلِ النِّقاشاتِ الْعُمُومِيَّةِ إِلَى قَراراتٍ قانُونِيَّةٍ، خُصوصًا فِي الْمَسائِلِ الَّتِي تَتَطَلَّبُ خِبْرَةً تَقْنِيَّةً.

2.2.3 امْتِدَادانِ لِلنَّظَرِيَّةِ التَّداوُلِيَّةِ لِلدِّيمُقْراطِيَّةِ:

لِنُلْقِ نَظْرًا فِي امْتِدَادَيْنِ نَظَرِيَّيْنِ يُسْفِرُ كُلُّ مَنُهما عَنْ رِهانٍ مُخْتَلِفٍ فِي النَّظَرِيَّةِ التَّداوُلِيَّةِ لِلدِّيمُقْراطِيَّةِ؛ فالأَوَّلُ يَنْجُهِ إِلَى بَيانِ الْأُسُسِ الَّتِي تُقَوِّمُ عِلْمًا مَشْروعيَّةً الْإِلياتِ التَّداوُلِيَّةِ وَتَبْريْرِها، عَلى النَحْوَ الَّذِي بَسَطَهُ ديفيد إِسْتِلُونْد David Estlund فِي تَحْلِيلِهِ الْفَلْسَفِيِّ؛ أَمَّا الْإِمْتِدادُ الثَّانِي فَيَمِيلُ إِلَى النَّظَرِ فِي الْكَيْفِيَّاتِ الَّتِي يُمَكِّنُ بِها تَقْويمُ ما يَعتَرِي هَذِهِ الْإِلياتِ مِنْ قُصورٍ أَوْ حُدُودٍ، وَهُوَ الْمَسْعَى الَّذِي سَعَتْ إِلَى إِبْرازِهِ إِبْرِيس ماريون يُونغ Iris Marion Young.

أ- الدِّيمُقْرَاطِيَّةُ الْإِسْتِيمِيَّةُ عِنْدَ دِيفِيدِ إِسْتَلْنْدِ David Estlund وَالْمَطْلَبُ التَّسْوِيفِيُّ

فِي كِتَابِهِ «سِيَادَةُ الدِّيمُقْرَاطِيَّةِ L'autorité de la démocratie» يُقَدِّمُ دِيفِيدُ إِسْتَلْنْدُ مَعْضِلَةً سِيَاسِيَّةً صَاغَهَا فِي هَذَا السُّؤَالِ الْآتِي: «هَلِ النَّتَاجُ الدِّيمُقْرَاطِيَّةُ الَّتِي تَكُونُ جَيِّدَةً (أَوْ عَادِلَةً، أَوْ مَشْرُوعَةً) تَكُونُ كَذَلِكَ لِأَنَّهَا اخْتِيرَتْ دِيمُقْرَاطِيًّا، أَوْ إِنَّهَا عَلَى الْعَكْسِ اخْتِيرَتْ دِيمُقْرَاطِيًّا لِأَنَّهَا جَيِّدَةٌ؟»⁵²

يَذْهَبُ إِسْتَلْنْدُ إِلَى أَنَّ الْأَدَبِيَّاتِ الْحَدِيثَةَ فِي نَظَرِيَّةِ الدِّيمُقْرَاطِيَّةِ قَدْ حَسَمَتْ هَذِهِ الْمَعْضِلَةَ عَلَى عُجَالَةٍ لِصَالِحِ الشَّقِ الْأَوَّلِ، فَاتَّزَتْ بِذَلِكَ تَبَرِيرًا إِجْرَائِيًّا شَكْلِيًّا لِلدِّيمُقْرَاطِيَّةِ لَا يَنْظُرُ إِلَّا إِلَى نَوْعِ الْإِجْرَاءَاتِ الْمُعْتَمَدَةِ، دُونَ أَنْ يُعِيرَ اهْتِمَامًا لِقُدْرَتِهَا عَلَى بُلُوغِ أَفْضَلِ الْقَرَارَاتِ. وَفَقَ هَذَا الْمَنْظُورِ، يُفْتَرَضُ أَنَّ الْقَرَارَ الَّذِي يَكُونُ قَدْ سَبَقَتْهُ مَنَاقَشَةُ جَمَاعِيَّةٌ عَقْلَانِيَّةٌ يَفْهَمُ فِهْمًا أَفْضَلَ، وَمِنْ ثَمَّ يُقْبَلُ قَبُولًا أَوْسَعَ لَدَى الَّذِينَ يَغْتَرِفُونَ بِأَنَّهُمْ إِسْهَامًا فِيهِ، وَأَنَّ شَرْعِيَّةَ التَّدَاوُلِ تَقُومُ عَلَى قُدْرَتِهِ عَلَى تَوْليِدِ الْمُوَافَقَةِ assentiment.

مَعَ ذَلِكَ، لَيْسَتْ الْمَشْكَلَةُ فِي أَنَّ الْإِجْرَاءَاتِ تُنْتِجُ تَوَافُقًا، فَذَلِكَ قِيَمَةُ دِيمُقْرَاطِيَّةٍ لَا مُمَاحَكَةَ فِيهَا، إِنَّمَا تَبَرِيرُ الشَّرْعِيَّةِ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ الْإِجْرَائِي الْخَالِصِ وَحْدَهُ يَبْقَى هَسًا: فَهُوَ لَا يَقْنَعُ الْمُخْتَلِفِينَ، وَلَا يَمْنَحُ الْأَغْلَبِيَّةَ سُلْطَةً مَعْيَارِيَّةً عَلَى الْأَقْلِيَّةِ⁵³.

عَلَى مُقْتَضَى ذَلِكَ، يَسْتَدْعِي الْمَجَالُ التَّنْظِيرِيُّ تَحَوُّلًا إِلَى تَبَرِيرٍ إِسْتِيمِيٍّ: مَعْنَاهُ أَنَّ الدِّيمُقْرَاطِيَّةَ لَا تُحَكِّمُ بِنَفْسِهَا مَنْ حَيْثُ كَوْنُهَا عَدْلًا عَقْلِيًّا مُطْلَقًا، بَلْ تُقَيِّمُ بِاعْتِبَارِ مِيلِهَا إِلَى إِنْتَاجِ قَرَارَاتٍ أَكْثَرُ عَقْلَانِيَّةً وَمَلَائِمَةً، وَمِنْ ثَمَّ أَكْثَرُ شَرْعِيَّةً.

أَمَّا خَطَرُ هَذَا النَّهْجِ فَيَكْمُنُ فِي أَنَّهُ قَدْ يُؤَسِّسُ لِنِظَامٍ إِسْتِيمِيٍّ آخَرَ أَكْثَرُ فَعَالِيَّةً مَعْرِفِيًّا، لِصَالِحِ حُكْمِ الْحُكَمَاءِ: épistocratie / epistocracy وَالَّذِي كَانَ أَلِكْسِيْسُ دُو توكْفِيل Alexis de Tocqueville يُسَمِّيهِ «الْإِسْتِبْدَادُ الذَّكِيُّ» despotisme intelligent.

مِنْ هُنَا يَصُوعُ إِسْتَلْنْدُ اطْرُوحَتَهُ الْمَتَمَثِّلَةَ فِي أَنَّ يَخْلَعُ عَلَى الدِّيمُقْرَاطِيَّةِ قِيَمًا إِسْتِيمِيَّةً، بِمُسْتَطَاعِهَا أَنْ تُقَدِّمَ مَقْيَاسًا مَعْيَارِيًّا يُسَوِّعُ سُلْطَتَهَا. فَلَيْسَ الْمَطْلُوبُ مَعْرِفَةُ كَيْفَ تَكُونُ الدِّيمُقْرَاطِيَّةُ أَفْضَلَ أَدَاةً إِسْتِيمِيًّا فَقَطْ، بَلْ أَنَّ تَكْتَسِبَ قِيَمَةً إِسْتِيمِيَّةً تُبَيِّنُ مَقْدَارَ السُّلْطَةِ الْمَعْيَارِيَّةِ الَّتِي يَحِقُّ لِنَتَائِجِهَا أَنْ تَنْتَعَمَ بِهَا⁵⁴.

يَنْتَهِي دِيفِيدُ إِسْتَلْنْدُ إِلَى مَوْقِفٍ هَجِينٍ يُسَمِّيهِ «الْإِجْرَائِيَّةُ الْإِسْتِيمُولُوجِيَّةُ procéduralisme» épistémique. هَذَا الْمَوْقِفُ لَا يَنَافِعُ عَنِ الدِّيمُقْرَاطِيَّةِ، لِأَنَّهَا فَقَطْ تُولِّدُ نَتَاجَ مُرْضِيَّةٍ مَعْرِفِيًّا، وَإِنَّمَا أَيْضًا لِأَنَّ بِنَيْتَهَا الْإِجْرَائِيَّةَ تَمْتَلِكُ قُدْرَةً عَلَى إِنْشَاءِ قَرَارَاتٍ تَسْتَحِقُّ الْقَبُولَ مِنْ جِهَةِ مَظْهَرِهَا الْإِجْرَائِيِّ وَمُسْتَوَى نَوْعِيَّةِ النِّقَاشِ⁵⁵. لِتَعَزِيزِ حُجَّتِهِ الْمَعْرِفِيَّةِ، يَتَخَلَّى إِسْتَلْنْدُ عَنْ «مُبْرَهَنَةِ هَيْئَةِ الْمُخْلَفِينَ théorème du jury» الَّتِي قَدَّمَهَا نِيكُولَا كُونْدَرْسِيَه Nicolas de Condorcet، وَالَّتِي تَفْتَرِضُ ازْدِيَادَ اِخْتِمَالِ وَصُولِ جَمَاعَةٍ إِلَى الْحَقِّ، كُلَّمَا ازْدَادَ عَدَدُ أَفْرَادِهَا، بِفَرْضِ أَنَّ كُلَّ فَرْدٍ عَلَى حِدَةٍ لَهُ اِخْتِمَالٌ أَكْبَرُ مِنَ النِّصْفِ لِإِتْخَاذِ قَرَارٍ صَائِبٍ. إِلَّا أَنَّ هَذِهِ الصِّبْغَةَ الْإِحْصَائِيَّةَ تَتَغَافَلُ عَنِ أَثَرِ «التَّوَاصُلِ بَيْنَ الْأَشْخَاصِ» communication interpersonal فِي تَحْوِيلِ الْأَرْءِ وَتَطْوِيرِهَا، وَبِنَاءِ عَلَى هَذِهِ الْمَسْوَغَاتِ يَتَجَنَّبُهَا.

بَدَلًا مِنْ هَذَا النَّهْجِ الْإِحْصَائِيِّ، يَتَكَيَّ إِسْتَلْنَدُ عَلَى حُجَّةٍ تَدَاوُلِيَّةٍ ذَاتِ طَلَاعٍ أَرِسْطُوطَالِيَّيْنِ، وَمُؤَدَّاهَا أَنَّ النِّقَاشَ الْجَمَاعِيَّ، وَلَوْ كَانَ أَفْرَادُهُ ضُعَفَاءَ فِي قُدْرَاتِهِمُ الْفَرْدِيَّةِ، قَدْ يُنْبِتُ قِيَمًا مَعْرِفِيَّةً أَعْلَى قِيَمَةً مِمَّا تُنتِجُهُ أَقْلِيَّةٌ بِحِكْمَتِهَا الْمُتَفَصِّلَةِ. بِهَذَا الْمَفْهُومِ، لَيْسَ صَوَابُ الْقَرَارِ مَقْيَاسًا كَمِيًّا فَقَطْ، بَلْ نَوْعِيًّا: مَدَى جُودَةِ النِّقَاشِ الَّذِي سَبَقَهُ هُوَ الَّذِي يُفَرِّزُ صِحَّتَهُ وَقِيَمَتَهُ الْإِبْسْتِيمِيَّةَ.

ثُمَّ يَنْصَرِفُ إِسْتَلُونْدُ إِلَى بَحْثٍ مَا يَسَمِّيهِ «مُتَطَلِّبَاتِ الْقَابِلِيَّةِ لِلْقَبُولِ» *exigences d'acceptabilité*، وَهِيَ مُتَطَلِّبَاتٌ تُلْزِمُ أَخْلَاقِيًّا مَنْ يُسَارِكُونَ فِي اتِّخَاذِ قَرَارٍ مَا بِالْإِمْتِنَالِ لَهُ. فَيُوكِّدُ أَوَّلًا: «لَا يَمْلِكُ أَحَدٌ سُلْطَةً أَوْ قُدْرَةً إِكْرَاهِيَّةً مَشْرُوعَةً عَلَى غَيْرِهِ دُونَ تَسْوِيعٍ بِمُكْنَتِهِ أَنْ يَكُونَ مَقْبُولًا لَدَى جَمِيعِ وَجْهَاتِ النَّظَرِ الْمُؤَهَّلَةِ». هَذِهِ هِيَ الرُّوحُ الَّتِي يَقْتَرِحُهَا: تَوَازُنٌ حَذِرٌ بَيْنَ فَعَالِيَّةِ الْإِجْرَاءِ وَقِيَمَتِهِ الْإِبْسْتِيمِيَّةِ، مُسْتَنِدٌ إِلَى شَرْطِ قَبُولِ أَخْلَاقِيٍّ يُمْكِنُ مِنْ تَحْقِيقِ شَرْعِيَّةٍ تَحْمِلُ مَسْئُولِيَّةً وَقُوَّةً لَا تَحْتَكِرُ الْحَقَّ فِي قِلَّةٍ مُسْتَأْثَرَةٍ بِهِ. وَيَمْضِي إِسْتَلُونْدُ إِلَى عَدِّ الدِّيمُقْرَاطِيَّةِ وَحْدَهَا مَنْ يَلْبِي هَذَا الشَّرْطَ مِنْ «الْقَابِلِيَّةِ الْعَامَّةِ لِلْقَبُولِ»، وَذَلِكَ لِأَنَّهَا تَمْنَحُ صَوْتًا مُتَسَاوِيًّا لِجَمِيعِ أَعْضَاءِ الْجَمَاعَةِ السِّيَاسِيَّةِ، وَلَا تُجْرِي أَيْ «مُقَارَنَةً مُهَيِّنَةً *comparaison blessante* بَيْنَ الْعُمُومِ»⁵⁶.

ب- الدِّيمُقْرَاطِيَّةُ التَّوَاصُلِيَّةُ عِنْدَ إِيرِيس مَارِيُون يُونُغ Iris Marion Young وَتَنْفِيحُ الدِّيمُقْرَاطِيَّةِ التَّدَاوُلِيَّةِ

لَمْ يَسْلَمْ نَمُودُجُ «الدِّيمُقْرَاطِيَّةِ التَّدَاوُلِيَّةِ» *la démocratie délibérative* مِنْ سِهَامِ النَّقْدِ، إِذْ لَقَّتِ الْإِنْتِبَاهَ غَيْرَ وَاحِدٍ مِنَ الدَّارِسِينَ إِلَى مَا قَدْ يَغْتَرِبُهُ مِنْ نَزْعَةٍ إِفْصَائِيَّةٍ كَامِنَةٍ، تَجْعَلُهُ - فِي بَعْضِ أَحْوَالِهِ - مِيَالًا إِلَى إِنْعَادِ الْفَنَاتِ الْأَشَدِّ هَشَاشَةً دَاخِلَ الْجَمَاعَاتِ الْأَقْلِيَّةِ عَنْ سَاحَةِ النِّقَاشِ الْعُمُومِيِّ. ذَلِكَ أَنَّ هَذِهِ الصَّبِيغَةَ مِنَ التَّدَاوُلِ، وَإِنْ ادَّعَتْ الْإِنْفِتَاحَ وَالشُّمُولَ، لَا تَنْفَلِكُ فِي حَقِيقَةِ أَمْرِهَا تُعِيدُ إِنتَاجَ أَنْمَاطِ النِّقَاشِ السِّيَاسِيِّ الْمُرُورَةِ، حَيْثُ يُعْلَى مِنْ شَأْنِ الْمَلَكَاتِ التَّأْمِلِيَّةِ، وَمَهَارَةِ الْخِطَابِ الْعَلَنِيِّ، وَالبَرَاةِ الْبَلَاغِيَّةِ، وَالِاسْتِعْدَادِ الْبُخَالِيٍّ؛ وَهِيَ خِصَالٌ لَا تَتَوَافَرُ عَلَى قَدَمِ الْمُسَاوَاةِ بَيْنَ جَمِيعِ الْأَفْرَادِ. وَمِنْ ثَمَّ يَغْدُو الْوُلُوجُ إِلَى مِثْلِ هَذِهِ الْمَجَالِسِ التَّدَاوُلِيَّةِ أَمْرًا عَسِيرَ الْمَتَالِ لِكَثِيرِينَ، لِمَا يَقْتَضِيهِ مِنْ كُلْفَةٍ رَمْزِيَّةٍ وَمَعْرِفِيَّةٍ لَا يَقْتَدِرُ عَلَمُهَا الْجَمِيعُ. هُنَا تَقِفُ يُونُغُ مُشَخَّصَةً أَعْطَابَ الدِّيمُقْرَاطِيَّةِ التَّدَاوُلِيَّةِ: فَكُلُّ إِفْصَاءٍ تَرْصُدُهُ سُوْسِيُولُوجِيَا التَّدَاوُلِ، تَعْمَلُ يُونُغُ عَلَى فَضْحِ أَقْنَعَتِهِ الْمُوَارِبَةِ. وَلِنَصُوبِ وَضْعَ الْقُوَى الْمَسِيْطَرَةِ وَتَقْلِيلِ الْإِنْجِيزِ، تَقْدِمُ مَبْدَأَ الشُّمُولِ *principe d'inclusion* مَعْيَارًا مَخُورِيًّا لِتَقْدِيرِ حُجْمِ الدِّيمُقْرَاطِيَّةِ فِي أَيْ قَرَارٍ: «فَالشَّرْعِيَّةُ الْمَعْيَارِيَّةُ لِقَرَارٍ دِيمُقْرَاطِيٍّ تَعْتَمِدُ عَلَى مَدَى إِدْمَاجِ الْأَشْخَاصِ الْمَعْنِيِّينَ فِي إِجْرَاءِ اتِّخَاذِ الْقَرَارِ»⁵⁷.

وَتُحْطَرُ يُونُغُ بِأَنَّهُ، عِنْدَ تَطْبِيقِ هَذَا الْمَعْيَارِ، تَطْهَرُ بَعْضُ نَمَازِجِ الدِّيمُقْرَاطِيَّةِ التَّدَاوُلِيَّةِ الْمُسْتَلْهَمَةِ مِنْ أَفْكَارِ يُونُغُنْ هَابِرْمَاسٍ أَوْ جُون زُولَرِ نَمَازِجَ غَيْرِ مُرْصِيَّةٍ. فَإِنَّ كَانَتْ هَذِهِ النُّظَرِيَّاتُ قَدْ أَحْسَنْتْ صُنْعًا حِينَ رَفَضَتْ أَيْ إِفْصَاءً خَارِجِيًّا وَفَتَحَتْ بَابَ التَّدَاوُلِ لِلْجَمِيعِ، فَإِنَّهَا، فِي الْمَقَابِلِ، أَهْمَلَتْ كَثِيرًا مِنَ الْآلِيَّاتِ الدَّاخِلِيَّةِ

لِلنِّقَاشِ الَّتِي قَدْ تُنتِجُ هِيَ نَفْسُهَا أَشْكَالًا خَفِيَّةً مِنَ الْإِفْصَاءِ: صَوْتُ يَهْدَمُ قَبْلَ أَنْ يَتِمَّ سَمَاعُهُ، وَحُجَّةٌ تُخْفَى وَرَاءَ هَيْكَلٍ لُغَوِيٍّ لَا يُتَاوَمُّهَا الْمُسْتَمِيعُونَ.

وَفِي مَقَالٍ مِنْ مَقَالَاتِهَا افْتَرَضَتْ عَلَى سَبِيلِ التَّخْيِيلِ نِقَاشًا بَيْنَ مُنَاصِرَةِ الدِّيمُقْرَاطِيَّةِ التَّدَاوُلِيَّةِ وَنَاشِطٍ مِنْ أَشْيَاعِ الْفِعْلِ الْمُبَاشِرِ *action directe*، تُحَدِّدُ يُؤْنَعُ نَوْعَيْنِ رَئِيسِيَّيْنِ لِلْآثَارِ الْإِفْصَائِيَّةِ تُعَابُ عَلَى الْإِجْرَاءَاتِ التَّدَاوُلِيَّةِ:

أَوَّلُهُمَا نَابِعٌ مِنَ اللَّاتِكَاْفُوِّ الْاجْتِمَاعِيِّ السَّابِقِ لِسَيَرُورَةِ الْحَوَارِ؛ فَلِلْمُشَارِكُونَ لَا يَدْخُلُونَ مُتَسَاوِينَ فِي الْمَوَارِدِ، وَالْمَهَارَاتِ، وَالْمَرْتَبَةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ، فَيَتَحَوَّلُ النِّقَاشُ مِنْ وَسِيلَةٍ لِلتَّنَاوُلِ وَالتَّدَاوُلِ إِلَى مِيدَانٍ يَسْتَأْثِرُ بِهِ صَوْتُ عَلَى آخَرٍ.

هَذِهِ النُّقْطَةُ لَيْسَتْ شَكْوَى صَرَفَةً، بَلْ دَعْوَةٌ لِإِصْلَاحٍ تَدَاوُلِيٍّ: إِنْ كَانَ الشُّمُولُ هُوَ الْمَقْيَاسُ، فَلَيْكُنْ مُلْزَمًا بِشُرُوطِ تَكْوِينِيَّةٍ وَمَوَارِدِيَّةٍ تُمَكِّنُ الْمَهْمَشِينَ مِنَ الْحُضُورِ بِقُدْرَةٍ تُكَافِي قُدْرَةَ غَيْرِهِمْ، حَتَّى تَصِيرَ الشَّرْعِيَّةُ حَقًّا عِمَادًا لَا يَتَرَعَّعُ.

ثَانِيَهُمَا، وَهُوَ أَدْقُ ظُهُورًا وَأَخْفُ تَأْثِيرًا، يَنْبُعُ مِنْ وُجُودِ «خِطَابٍ مُهَيْمِنٍ *discours hégémonique*» دَاخِلٍ مُجْتَمِعٍ لَا يَتَسَمُّ بِالْمَسَاوَةِ، خِطَابٍ يُؤَدِّي دَوْرًا مُتَعَدِّدَ الْوُجُوهِ: يُسَوِّغُ السُّلْطَةَ، وَيُعِيدُ إِتْجَاحَ أَشْكَالِ الظُّلْمِ، وَفِي ذَاتِ الْآنِ يُشَوِّهُ قَنَوَاتِ التَّوَاصُلِ بَيْنَ النَّاسِ. هَذِهِ الظَّاهِرَةُ «تَعْمَلُ حِينَ يَتَأَثَّرُ الْإِطَارُ الْمَفْهُومِيُّ وَالْمَعْيَارِيُّ لِأَعْضَاءِ مُجْتَمِعٍ مَا تَأَثَّرًا عَمِيقًا بِمُقَدِّمَاتٍ وَمَضَامِينٍ خِطَابِيَّةٍ تَعُوقُ التَّفَكِيرَ النَّقْدِيَّ».⁵⁸

وَمَعَ اعْتِرَافِ النَّاقِدَةِ يُؤْنَعُ بِسَطْوَةِ هَذِهِ الْآثَارِ الْإِفْصَائِيَّةِ، فَإِنَّهَا تَمْتَنِعُ عَنْ اسْتِخْلَاصِ الْاسْتِنتَاجِ الَّذِي يُدْلِي بِهِ النَّاشِطُ فِي سِينَارِيُو النِّقَاشِ الْمُتَخَيَّلِ: فَهِيَ تَرْفُضُ أَنْ يَسْتَنْفِدَ الْقَاعِلُونَ وَسَائِلَ الدِّيمُقْرَاطِيَّةِ التَّدَاوُلِيَّةِ بِاتِّخَاذِ مَوْقِفٍ خَارِجٍ اعْتِرَاضِيٍّ وَالتَّوَقُّفِ عِنْدَهُ، وَاللُّجُوءِ إِلَى تَكْتِيكَاتٍ مِثْلَ الْإِضْرَابِ *grève* أَوْ الْمَقَاطَعَةِ (boycott) أَوْ الْفِعْلِ الْمُبَاشِرِ (*action directe*) يَهْدَفُ نَزْعُ الشَّرْعِيَّةِ عَنْ عَمَلِيَّاتِ التَّدَاوُلِ.⁵⁹

بَلْ إِنَّهَا تُؤَكِّدُ، عَلَى التَّقْيِيزِ مِنْ ذَلِكَ، أَنَّ الْمَخْرَجَ الْعَمَلِيَّ يَكْمُنُ فِي تَوْسِيعِ أَفْقِ التَّوَاصُلِ الدِّيمُقْرَاطِيِّ وَتَنْوُوعِ أَدَوَاتِهِ: لَا يُغْلَقُ النِّقَاشُ بِأَسْلُوبٍ وَاحِدٍ عَقْلَانِيٍّ بَلَاغِيٍّ صَارِمٍ، بَلْ يَجِبُ أَنْ يُفَسَّحَ الْمَجَالُ أَمَامَ الشَّهَادَةِ وَالرِّوَايَةِ وَالتَّعْبِيرِ الْمَوْقِعِيِّ *l'expression située* عَنِ التَّبَايُنَاتِ وَالتَّفَضُّيلَاتِ، مِنْ أَجْلِ أَنْ تَتَحَوَّلَ تَجْرِبَةُ الْحَيَاءِ مِنَ الْإِفْصَاحِ عَمَّا يَخْتَلِجُ فِي النُّفُوسِ إِلَى مَادَّةٍ مَعْرِفِيَّةٍ فَاعِلَةٍ فِي الْحَوَارِ الْعُمُومِيِّ. يَهَذِهِ الْأَلِيَّةُ تَصِيرُ سُبُلُ الدُّخُولِ إِلَى الْقَضَاءِ الْعَامِّ أَقْرَبَ إِلَى مَبْدَأِ الْمَسَاوَةِ: لَا يَحْكُمُهَا تَفَوُّقُ مَهَارَةِ الْخِطَابِ فَحَسْبُ، بَلْ تَكُونُ مَدْفُوعَةً أَيْضًا بِمَا تَمْلِكُهُ الشَّرَائِعُ الْمَهْمَشَةُ مِنْ شَهَادَاتٍ وَخِبْرَاتٍ تَجْعَلُهَا شَرِيكَةً حَقِيقِيَّةً فِي صِنَاعَةِ الرَّأْيِ الْعَامِّ.

قَدْ لَا يَكُونُ مَا كَشَفَتْ عَنْهُ النَّظَرِيَّةُ النَّقْدِيَّةُ مِنْ نَوَاقِصِ نُمُودَجِ الدِّيمُقْرَاطِيَّةِ التَّدَاوُلِيَّةِ مُوجِبًا لِرَفْضِهِ رَفْضًا تَامًا أَوْ الْإِتِّدَادَ عَنْهُ جُمْلَةً. فَهَذَا مَا تُؤَكِّدُهُ Iris Marion Young، الَّتِي لَا تَرَى فِي هَذِهِ الْإِنْتِقَادَاتِ دَعْوَةً إِلَى هَدْمِ النَّمُودَجِ، وَإِنَّمَا تَعُدُّهَا خَافِرًا عَلَى مُرَاجَعَتِهِ وَتَنْقِيحِ مَسَارِهِ. فَهِيَ تَسْعَى أَوَّلًا إِلَى تَقْوِيمِ بَنِيَتِهِ النَّظَرِيَّةِ

وَتَخْلِيصِهِ مِمَّا يَغْتَرِيهِ مِنْ مَظَاهِرِ الْقُصُورِ، ثُمَّ تَدْعُو بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى تَوْسِيعِ أَفْقِ الْفَضَاءِ الْعَامِ الَّذِي مِنْ شَأْنِ التَّدَاوُلِ، وَفَتْحِهِ أَمَامَ ضُرُوبٍ أُخْرَى مِنَ التَّوَاصُلِ تَكُونُ أَشَدَّ اسْتِحْضَارًا لِلْبُعْدِ الْعَاطِفِيِّ وَالتَّجْرِبَةِ الْمُتَجَسِّدَةِ (plus affectives et incarnées)، بِمَا يُمَكِّنُ خِبْرَاتِ الْأَفْرَادِ وَتَجَارِبَهُمُ الْمَعِيشَةَ مِنَ الدُّخُولِ فِي مَجَالِ النِّقَاشِ الْعَامِ دُونَ أَنْ تَطَّلَّ حَبِيسَةَ الصَّبِيغِ الْعَقْلَانِيَّةِ الصَّارِمَةِ وَحَدَهَا. تُلَخِّصُ يُونُغُ هَذِهِ الْمُبَادَرَةَ الْإِصْلَاحِيَّةَ فِي ثَلَاثَةِ مَسَارَاتٍ مُتَكَامِلَةٍ يَحْرِصُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا عَلَى صِبَاغَةِ صَدْقِ التَّدَاوُلِ وَتَوْسِيعِ مَدَاهِ.

أَوَّلًا، قَبْلَ أَنْ يَسْتَوْفِيَ التَّدَاوُلُ حَقَّهُ: لَا مَصْرِفَ مِنَ الْاِحْتِفَاءِ بِ«الِاخْتِلَافِ» وَالْقَبُولِ بِ«الْآخَرِ»، لَا سِيَّمَا بِمَنْ يُكَابِدُ التَّحْقِيرَ وَالتَّهْمِيشَ، لَا مِنْ نَاحِيَةِ شَكْلِيَّةٍ فَحَسَبَ، بَلْ مِنْ زَاوِيَةِ كَوْنِهِمَا فِعْلَانِ أَخْلَاقِيَانِ يُمَهَّدَانِ لِلتَّوَاصُلِ.

ثَانِيًا، مِمَّا عَنْهُ بُدُّ أَنْ تَكُونَ الْأَطْرُ النَّاطِلَةُ لِلتَّدَاوُلِ غَنِيَّةً بِالْأَشْكَالِ الْخِطَابِيَّةِ، حَتَّى لَا تُقْصِيَ عِبَارَاتُ لَهَا أَنْسُهَا الْمَوْضِعِيَّ أَوْ تَدْرَأُهَا عَنْ سَاحَةِ الْجَوَارِ لِعَدَمِ اتِّصَافِهَا بِقَدْرِ عَالٍ مِنَ الْعُمُومِيَّةِ وَالتَّجْرِيدِ. فَلْنَتَسَاهَلْ مَعَ الْبِلَاغَةِ la rhétorique بِعِدِّهَا فَنَّا لِبِنَاءِ حُجَجٍ جَدَّابَةٍ وَمُؤَثِّرَةٍ، وَلِتَكُنِ الشَّهَادَاتُ رَسَائِلَ سَرْدٍ témoignage /récit تُفْصِحُ عَنْ خِبْرَةِ مَعِيشَةٍ تُثْرِي الْمَعْرِفَةَ الْاجْتِمَاعِيَّةَ، فَأَتَى لَنَا أَنْ نَعْمِطَ قِيَمَةَ الشَّهَادَاتِ الَّتِي كَانَتْ سَبَبًا فِي إِضَاعَةِ مَأْسَاةِ التَّحَرُّشِ الْجِنْسِيِّ فِي سَبْعِينَاتِ الْقَرْنِ الْمَاضِي؟! وَعِلَاوَةً عَلَى ذَلِكَ، فَالْعَرُضُ الرِّوَايُ وَالْثَقَافِيُّ يَكْشِفَانِ قِيَمًا وَأُفُقًا لَا قَبْلَ لِلْحُجَّةِ الْعَقْلَانِيَّةِ بِالْإِعْرَابِ عَنْهَا؛ مَا حَمَلَ يُونُغُ إِلَى الْإِعْرَابِ عَنْ ذَلِكَ بِالْقَوْلِ: «المَصَالِحُ الْمُحَدَّدَةُ اجْتِمَاعِيًّا، وَالْاِقْتِرَاحَاتُ، وَالْمَطَالِبُ، وَشَهَادَاتُ التَّجَارِبِ تَكُونُ غَالِبًا مَوْرِدًا لِلْقَرَارِ الدِّيمُقْرَاطِيِّ وَلِعَمَلِيَّةِ اتِّخَاذِ الْقَرَارِ. وَقَدْ تَسْتَطِيعُ مِثْلُ هَذِهِ الْمَعَارِفِ الْمُحَدَّدَةِ أَنْ تُنَوِّعَ الْخِطَابَاتِ الْمَهْمِنَةَ وَأَنْ تُصَيِّرَهَا نَسِيبَةً، وَأَنْ تَجْعَلَ مَعَارِفَ كَانِ مِنَ الْمُمَكِّنِ أَنْ تُسَكَّتَ تُسْهِمُ فِي قَرَارَاتٍ حَكِيمَةٍ»⁶⁰

ثَالِثًا، تُؤَكِّدُ يُونُغُ أَنَّ هَدَفَ التَّدَاوُلِ لَيْسَ الْإِصْرَارُ عَلَى الْوُصُولِ إِلَى تَوَافُقٍ نِهَائِيٍّ يَنْتِجُ مِنْ تَهْذِيبِ صُورِ الْأَنْشِطَةِ السِّيَاسِيَّةِ الْبِضَالِيَّةِ طَرًّا. لِأَمْنِهَا، عَلَى الْعَكْسِ مِنْ ذَلِكَ، تُعَدُّ «الْقُوَى الْمُزْعِزَةُ» لِلتَّوَازُنِ تَعْوِضًا عَنْ نَقَائِصِ التَّدَاوُلِ فِي مَجَالِ الْإِدْمَاجِ. اِتِّكَاءً إِلَى هَذَا الْأَسَاسِ، تُقْبَلُ يُونُغُ أَنَّ يَظَلَّ التَّبَادُلُ عَلَى سَبِيلِ الضَّرُورَةِ «مُضْطَرِيًّا، قُوْرِيًّا، وَغَيْرَ مُرَكِّزٍ» (turbulents, désordonnés et décentrés)، وَمِنْ ثَمَّ تَرَى أَنَّ «مَسَارَ تَوَاصُلٍ دِيمُقْرَاطِيِّ مَسْئُولٍ وَمُنْخَرِطٍ» لَأَبْدُ أَنْ يَشْمَلَ بِوَسَائِلِهِ الْمُخْتَلِفَةَ تَظَاهِرَاتِ الشَّارِعِ وَالْاِعْتِصَامَاتِ (sit-in)، وَالْعُرُوضِ الْمَوْسِيقِيَّةِ interventions musicales وَالرُّسُومِ السَّاخِرَةِ، مَعَ الْخِطَابَاتِ الْبَرْلَمَانِيَّةِ وَمُرَاسَلَاتِ الْقُرَّاءِ، لِيَصِيرَ الْفَضَاءُ الْعَامُّ مَجَالًا حَيًّا لِتَقَارُبِ الصُّورِ وَتَبَادُلِ الْأَصْوَاتِ.⁶¹

3.3 تَعْضِيدُ الدِّيمُقْرَاطِيَّةِ التَّشَارِكِيَّةِ بِالْدِّيمُقْرَاطِيَّةِ التَّدَاوُلِيَّةِ

تَشَارَكَ الدِّيمُقْرَاطِيَّةُ التَّشَارِكِيَّةُ مَعَ الدِّيمُقْرَاطِيَّةِ التَّدَاوُلِيَّةِ فِي نُقْطَتَيْنِ أَسَاسِيَّتَيْنِ: تَكْمُنُ الْأُولَى فِي التَّعَامُلِ مَعَ الْمَشَارِكِينَ فِي صُنْعِ الْقَرَارِ عَلَى أَنَّهُمْ يَنْعَمُونَ بِالْقِيَمَةِ نَفْسِهَا دُونَمَا تَفَاوُتٍ، وَأَنَّ قَرَارِهِمْ لَا يُنْظَرُ إِلَيْهَا وَفَقِ

نَظَرُهُ هَرَمِيَّةٌ، وَتَكْمُنُ الثَّانِيَةُ فِي النِّظَرِ إِلَى الْمَشَارَكَةِ النَّشِطَةِ لِلْمُشَارِكِينَ عَلَى أَنَّهَا فَضِيلَةٌ مَدَنِيَّةٌ مُفِيدَةٌ. وَتَنْدُرُجُ هَاتَانِ النُّقْطَتَانِ ضِمْنَ التَّوَعِينَ الرَّئِيسِيِّينَ مِنَ الْأَسْئَلَةِ الَّتِي تَنَاوَلَتَهَا الْأَدَبِيَّاتُ السِّيَاسِيَّةُ الْمُعَاصِرَةُ بِشَأْنِ نَظَرِيَةِ الدِّيمُقْرَاطِيَّةِ التَّدَاوُلِيَّةِ، وَهُمَا (1) التَّرْتِيبَاتُ أَوْ التَّدْبِيرَاتُ الْعَمَلِيَّةُ dispositifs pratiques الَّتِي يَدْعُو إِلَيْهَا مَفْهُومُ الدِّيمُقْرَاطِيَّةِ التَّدَاوُلِيَّةِ، وَ(2) إِضْفَاءُ الشَّرْعِيَّةِ عَلَى النُّظُمِ الدِّيمُقْرَاطِيَّةِ الْمُعَاصِرَةِ وَنَقْدُهَا. وَتَشْمُلُ الْمَجْمُوعَةُ الْأُولَى مِنَ الْأَسْئَلَةِ الْمَوَاضِيعَ الْمُتَعَلِّقَةَ بِصُنْعِ الْقَرَارِ، وَتَحْسِينِ ظُرُوفِ الْمَسَاوَةِ السِّيَاسِيَّةِ (أَوْ الْحَدِّ مِنْ أَوْجُهُ عَدَمِ الْمَسَاوَةِ السِّيَاسِيَّةِ) وَالْإِسْتِنَادِ إِلَى تَفْضِيلَاتِ الْمَوَاطِنِينَ. وَسَوْفَ نَدْرُسُ عَلَى التَّوَالِي مَسْأَلَةَ تَسَاوِي وَزْنِ الْمَشَارِكِينَ فِي عَمَلِيَّةِ صُنْعِ الْقَرَارِ processus décisionnel، الَّتِي هِيَ عَزِيزَةٌ عَلَى نَظَرِيَةِ الدِّيمُقْرَاطِيَّةِ التَّشَارِكِيَّةِ، وَالطَّرِيقَةَ الَّتِي عَالَجَتْ بِهَا نَظَرِيَةُ الدِّيمُقْرَاطِيَّةِ التَّدَاوُلِيَّةِ هَذِهِ الْمَسْأَلَةَ ذَاتَهَا.

دَعَوْنَا نَنْظُرُ أَوَّلًا إِلَى مَبَانِي الدِّيمُقْرَاطِيَّةِ التَّدَاوُلِيَّةِ وَمَزَايَاهَا فِي سِيَاقِ تَعْضِيدِ الدِّيمُقْرَاطِيَّةِ التَّشَارِكِيَّةِ بِهَا، وَبِنَاءً عَلَى ذَلِكَ سَنَعْتَمِدُ عَلَى سُلْمِ مُشَارَكَةِ الْمَوَاطِنِ لِشِيرِي أَرْنَشْتَاين Sherry Arnstein، الَّتِي نُشِرَ عَامَ 1969، وَعَلَى نَظَرِيَةِ الدِّيمُقْرَاطِيَّةِ التَّشَارِكِيَّةِ Theory of Participative Democracy لِكَارُولِ بَاتْمَانِ Carole Pateman، الَّتِي عُرِضَتْ عَامَ 1970. حَسَبَ شِيرِي أَرْنَشْتَاين، فَإِنَّ «مُشَارَكَةَ الْمَوَاطِنِينَ شَرْطٌ لِزَامِي لِسُلْطَةِ الْمَوَاطِنِ»⁶². وَمَدَعَى ذَلِكَ وُجُودُ «فَرْقٍ كَبِيرٍ بَيْنَ طُقُوسِ الْمَشَارَكَةِ الْفَارِغَةِ وَالْقُدْرَةِ الْحَقِيقِيَّةِ عَلَى التَّأْثِيرِ فِي نَتِيجَةِ الْعَمَلِيَّةِ [التَّشَارِكِيَّةِ]»⁶³؛ وَمِنْ ثَمَّ فَأَيُّ عَمَلِيَّةٍ لَا تَنْتَهِي إِلَى نَقْلِ السُّلْطَةِ، لَنْ تَكُونَ سِوَى تَلَاغُبٍ بِالرَّأْيِ الْعَامِ؛ وَلَيْسَ مِنَ الْمُسْتَطَاعِ تَحْقِيقُ أَيِّ مُشَارَكَةٍ ذَاتِ مَعْرَى حَتَّى تَدْخُلَ الدِّيمُقْرَاطِيَّةُ الْمُبَاشَرَةُ حَيْزَ التَّنْفِيزِ. يَحْتَوِي مِقْيَاسُ/سُلْمُ الْمَشَارَكَةِ الَّذِي وَضَعْتُهُ شِيرِي أَرْنَشْتَاين عَلَى ثَمَانِي مُسْتَوِيَّاتٍ/دَرَجَاتٍ تُقَابِلُهَا ثَمَانِي مُسْتَوِيَّاتٍ/دَرَجَاتٍ مِنَ الْقُوَّةِ. بَدَأَ مِنْ أَسْفَلِ الْمَرَاتِبِ صُعُودًا إِلَى أَعْلَاهَا، وَبِمُوجِبِ مِقْدَارِ الْمَشَارَكَةِ، يَتَوَرَّعُ مِقْيَاسُ هَذِهِ الْمَنْظُورَةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ إِلَى ثَلَاثِ فِئَاتٍ تَتَرَاوَحُ بَيْنَ الْفِئَةِ الْأُولَى الَّتِي تَكُونُ قُوَّةُ الْمَشَارَكَةِ فِيهَا مَعْدُومَةٌ فِي الدَّرَجَتَيْنِ الْأُولَى وَالثَّانِيَّةِ، ثُمَّ بَيْنَ الْفِئَةِ الثَّانِيَّةِ الَّتِي تَكُونُ فِيهَا قُوَّةُ الْمَشَارَكَةِ مُتَوَسِّطَةٌ أَوْ رُمُوزِيَّةٌ فِي الدَّرَجَةِ الثَّالِثَةِ وَالرَّابِعَةِ وَالْخَامِسَةِ، ثُمَّ بَيْنَ الْفِئَةِ الثَّالِثَةِ الَّتِي تَكُونُ فِيهَا قُوَّةُ الْمَشَارَكَةِ مُرْتَفِعَةٌ أَوْ حَقِيقِيَّةٌ فِي الدَّرَجَةِ السَّادِسَةِ وَالسَّابِعَةِ وَالثَّامِنَةِ. هَذِهِ الدَّرَجَاتُ الثَّمَانِيَّةُ هِيَ عَلَى النَّحْوِ الْآتِي:

أَوَّلًا: التَّلَاغُبُ manipulation، بِاعْتِبَارِهِ مُشَارَكَةً شَكْلِيَّةً وَهَمِيَّةً يَجْرِي فِيهَا اسْتِيعَابُ الْمَعَارِضَةِ أَوْ التَّرْوِجِ لِقَرَارٍ مُعَدٍّ مُقَدِّمًا وَتَرْبِئُهُ، مِنْ أَجْلِ تَنْفِيزِ الْأَجَنْدَاتِ الْخَاصَّةِ بِالسُّلْطَةِ، وَلَا تَكُونُ دِلَالَةً لِقُوَّةٍ هُنَا إِلَّا صِفْرِيَّةً، مَا دَامَتْ سُلْطَةُ الْمَوَاطِنِينَ فِيهِ مُعْدَمَةٌ (الدَّرَجَةُ الْأُولَى مِنَ اللَّامُشَارَكَةِ)⁶⁴. ثَانِيًا: الْعِلَاجُ thérapie، بِاعْتِبَارِهِ مُسْتَوًى تَنْتَهِي فِيهِ الْمَشَارَكَةُ، إِذْ لَا يُرَادُ بِالْمَوَاطِنِينَ فِي هَذِهِ الْمَرْتَبَةِ غَيْرَ تَغْدِيلِ مَوَاقِفِهِمْ أَوْ عِلَاجِهَا، لِيَتَقَبَّلُوا حُلُولًا مَفْرُوضَةً مُسَبِّقًا، لَيْسَ لَهَا عِلَاقَةٌ بِالْأَسْبَابِ الْحَقِيقِيَّةِ لِلْقَضَايَا السِّيَاسِيَّةِ الْمُلْحَةِ؛ هَذَا الصَّنِيعُ يُحَوِّلُ أَصْحَابَ السُّلْطَةِ انْتِبَاهَ النَّاسِ إِلَى قَضَايَا سَطْحِيَّةٍ تَتَطَلَّبُ تَغْيِيرَ سُلُوكِهِمْ، بِمَا يَجْعَلُ الْمَشَارَكَةَ مُجَرَّدَ سَبِيلٍ لِتَرْوِضِهِمْ وَتَطْوِيعِ وَعْيِهِمْ عِوَضَ تَمْكِينِهِمْ (الدَّرَجَةُ الثَّانِيَّةُ مِنَ اللَّامُشَارَكَةِ). ثَالِثًا:

عَمَلِيَّةُ الإِبْلَاحِ processus d'information، بِاعْتِبَارِهَا إِعْلَامًا لِلْجُمْهُورِ بِحُقُوقِهِمْ، وَبِخُطَطِ السُّلْطَةِ وَقَرَارَاتِهَا، لَكِنْ غَالِبًا مَا يَكُونُ ذَلِكَ فِي صُورَةِ اتِّجَاهٍ وَاحِدٍ يَنْطَلِقُ مِنَ السُّلْطَةِ شَطْرَ الْجُمْهُورِ، مِنْ غَيْرِ مَا قَنَوَاتٍ فَعَالَةٍ لِلتَّعْلِيْقِ وَالتَّفَاعُلِ مَعَ هَذَا كُلِّهِ، وَخَلِيقٌ بِنَا أَنْ نُشِيرَ إِلَى أَنَّ السُّلْطَةَ تَعْمِدُ إِلَى تَقْدِيمِ مَعْلُومَاتٍ فِي مَرَحَلَةٍ مُتَأَخِّرَةٍ أَوْ نَاقِصَةٍ أَوْ مُعَقَّدَةٍ حَتَّى لَا يَكُونَ لِلنَّاسِ إِلَّا فُرْصًا ضَعِيفَةً لِلتَّدْخُلِ وَالتَّأْيِيرِ⁶⁵. لَا يَمْلِكُ أَنْ يَكُونَ هَذَا الْمُسْتَوَى فِي سُلْمِ الْقُوَّةِ إِلَّا أَذْنَوِيًّا، عَلَى الرُّغْمِ مِنْ أَنَّهُ مِنَ الشَّفَافِيَّةِ عَلَى شَيْءٍ، غَيْرَ أَنَّ غِيَابَ قَنَوَاتِ التَّغْذِيَةِ الرَّاجِعَةِ يُصْبِرُهُ «تَوَثُّبًا» لَا «تَمَكِينًا»؛ لِأَجْلِ ذَلِكَ، لَا مَنْدُوحَةٌ مِنْ اقْتِرَانِ الإِبْلَاحِ بِالْيَاتِ رَدِّ الْفِعْلِ وَالتَّقْيِيمِ⁶⁶. رَابِعًا: التَّشَاوُرُ consultation، بِاعْتِبَارِهِ إِشْرَاكَ لِلْجَمَاهِيرِ، مِنْ طَرِيقِ اسْتِطْلَاعِ الْأَرْءِ وَجَلَسَاتِ الاسْتِمَاعِ وَمَا إِلَى ذَلِكَ، لِلْوُقُوفِ عَلَى آرَائِهِمْ، لَكِنِّهَا تَظَلُّ، عَلَى كَوْنِهَا مَأْخُوذَةٌ بِالْجَسْبَانِ، غَيْرَ مُلْزِمَةٍ، مَا يَجْعَلُ قُبُولَ الْمُدْخَلَاتِ أَوْ رَفْضَهَا مَوْكُولًا فِي مُنْتَهَى الْمَطَافِ إِلَى حُرِيَّةِ السُّلْطَةِ وَتَفْضِيلَاتِهَا؛ مَا يَعْنِي أَنَّ الْمَشَارَكَةَ فِي هَذَا الْمُسْتَوَى مُجَرَّدُ طَقْسٍ شَكْلِيٍّ فِي إِطَارِهِ يُنْظَرُ إِلَى النَّاسِ عَلَى أَنَّهُمْ تَجْرِيدَاتٌ إِحْصَائِيَّةٌ يُقِيمُونَهَا ذَلِيلًا عَلَى الْإِثْمِ بِالْإِجْرَاءَاتِ الْمَطْلُوبَةِ⁶⁷ (يَعُدُّ هَذَا الْمُسْتَوَى مِنْ حَيْثُ دِلَالَةُ الْقُوَّةِ مُسْتَوَى مُمَيَّزًا، لَكِنَّهُ لَيْسَ كَافِيًا). خَامِسًا: الْمَصَالِحَةُ Conciliation أو التَّطْمِينُ Réassurance أو الاسْتِرْضَاءُ Satisfaction، بِاعْتِبَارِهِ مَنْحًا لِلْمُوَاطِنِينَ قَدْرًا مِنَ التَّأْيِيرِ الرَّمْزِيِّ وَدَرَجَةً مِنَ التَّمَثِيلِ فِي هَيْئَاتٍ مُحَدَّدَةٍ، مِنْ قَبِيلِ الْمَجَالِسِ الْإِدَارِيَّةِ وَالْوَكَالَاتِ الْجَمَاعِيَّةِ أَوْ الْهَيْئَاتِ الْعَامَّةِ، بِهَا يُفْصَحُونَ عَنْ أَصْوَاتِهِمْ، لَكِنْ عَلَى كَوْنِهَا أَصْوَاتًا مَسْمُوعَةً، تَبْقَى مُفْتَقِرَةً إِلَى قُوَّةِ الْإِلْزَامِ؛ ذَلِكَ أَنَّ تَفْعِيلَ آرَائِهِمْ مَوْقُوفٌ عَلَى تَقْدِيرَاتِ الْمُسْؤُولِينَ وَأَحْكَامِهِمُ الْهَيَّائِيَّةِ⁶⁸. سَادِسًا: الشَّرَاكَةُ Partenariat، بِاعْتِبَارِهَا عَقُودَ شَرَكَاتٍ مُؤَسَّسَاتِيَّةٍ بَيْنَ الْجِهَاتِ الْحَاكِمَةِ وَالْمُوَاطِنِينَ، مَا يَكْفُلُ مَشَارَكَةَ حَقِيقِيَّةً فِي التَّفَاوُضِ وَالْإِعْدَادِ وَالْإِنْفَادِ، بِقَدْرِ مَا يَجْرِي فِي إِطَارِ هَذِي التَّعَاقُدِيَّةِ تَقْسِيمُ النُّفُودِ وَالْقَرَارِ وَالتَّخْطِيطِ، وَلَا يَشْفُ هَذَا الْمُسْتَوَى إِلَّا عَنِ انْتِقَالِ الْمَشَارَكَةِ مِنَ الرُّبُوبَةِ الرَّمْزِيَّةِ إِلَى الرُّبُوبَةِ الْفَعْلِيَّةِ، بِمَا مُفَادُهُ امْتِلَاكُ الْمُوَاطِنِينَ أَدَوَاتٍ تَأْثِيرُ جَلِيَّةٍ، لَكِنْ هَذِهِ الشَّرَكَاتُ تَقْتَضِي الْيَاتِ مُؤَسَّسِيَّةً، تَلَافِيًا لِهَيْمَنَةِ الطَّرْفِ الْأَقْوَى، وَخَلْقًا لِتَوَازُنٍ فِي النُّفُودِ بَيْنَ أَطْرَافِهَا⁶⁹. سَابِعًا: السُّلْطَةُ الْمَفُوضَةُ pouvoir délégué، بِاعْتِبَارِهَا تَفْوِضَ صِلَاحِيَّاتٍ صُنْعِ الْقَرَارِ فِي قَضَايَا مُحَدَّدَةٍ لِلْهَيْئَاتِ الْمَحَلِّيَّةِ أَوْ لِمَجْمَاعَاتِ الْمَجْتَمَعِ الَّتِي يَنْعَمُ فِيهَا الْمُوَاطِنُونَ بِأَغْلَبِيَّةٍ وَاضِحَةٍ مِنَ الْمَقَاعِدِ، بِمَا يُمْنَحُهَا الْقُدْرَةُ عَلَى اتِّخَاذِ قَرَارَاتٍ مُلْزِمَةٍ؛ وَمِثَالُ ذَلِكَ صِلَاحِيَّةُ إِقْرَارِ مِيزَانِيَّاتٍ مَحَلِّيَّةٍ أَوْ تَنْفِيدِ مَشَارِيعٍ مِنْ غَيْرِ مَا مُوَافَقَةٍ مَرْكَزِيَّةٍ مُطْلَقَةٍ. ثَامِنًا: تَحَكُّمُ الْمُوَاطِنِ وَمُرَاقَبَتُهُ contrôle citoyen، بِاعْتِبَارِهَا امْتِلَاكُ الْمُوَاطِنِينَ غَالِبِيَّةً كَامِلَةً مِنْ مَقَاعِدِ صُنْعِ الْقَرَارِ، بِمَا يُمْكِنُهُمْ مِنْ حِيَازَةِ وَسَائِلِ الْحُكْمِ حِيَازَةً حَقِيقِيَّةً، مُدَبِّرِينَ الْعَمَلِيَّةَ الْإِدَارِيَّةَ ذَاتَهَا، وَلَا مَرِيَّةً مِنْ أَنَّ الْمَشَارَكَةَ هُنَا تَبْلُغُ ذُرْوَتَهَا وَمَرَدُّ ذَلِكَ إِلَى التَّحَوُّلِ الْجَوْهَرِيِّ فِي تَوْزِيعِ السُّلْطَةِ عَلَى الْمُوَاطِنِينَ وَتَمَكِينِهِمْ مِنْهَا⁷⁰.

أَعَادَتْ كَارُولُ بَاتْمَانُ صِيَاغَةَ سُلْمِ أَرْنِشْتَايْنِ ذِي الدَّرَجَاتِ الثَّمَانِيَّةِ فِي أَنْمُودَجٍ ثُلَاثِيٍّ الْأَبْعَادِ قَسَمَتْ فِيهِ الْمَشَارَكَةَ إِلَى ثَلَاثَةِ أَصْنَافٍ: بَدْءًا مِنَ الْمَشَارَكَةِ الزَائِفَةِ pseudo-participation، مُرُورًا بِالْمَشَارَكَةِ الْجُزْئِيَّةِ partial participation وَانْتِهَاءً بِالْمَشَارَكَةِ الْكَامِلَةِ full participation، وَكَانَ التَّمْيِيزُ بَيْنَهُمَا تَبَعًا لِدَرَجَةِ التَّأْيِيرِ

التي يُمكنُ لِلْمُشَارَكِينَ مُمارَسَتُهَا فِي نَتِيجَةِ الْحَدَثِ الَّذِي انْخَرَطُوا فِيهِ، فَكَلَّمَا زَادَ التَّأثيرُ، كَانَ ذَلِكَ أَمَارَةً عَلَى قُوَّةِ الْمِشَارَكَةِ وَتَوَعُّبِهَا. لِئِنْ كَانَ الصِّنْفُ الْأَوَّلُ مُتَقَرِّراً إِلَى الْمِشَارَكَةِ الْفِعْلِيَّةِ فِي صُنْعِ الْقَرَارِ، مَا دَامَتْ الْمِشَارَكَةُ فِيهِ تَنْحَطُّ إِلَى مَحْضِ عَمَلِيَّاتٍ زَمَرِيَّةٍ غَايُهَا خُلْعُ الشَّرْعِيَّةِ عَلَى قَرَارَاتٍ قَدْ تَخَذَتْهَا السُّلْطَةُ مُسَبِّقاً، وَلَطَالَمَا اسْتَعْمِلَتْ مِنْ أَجْلِ إِدَارَتِهَا إِعْلَامِيًّا أَوْ لِامْتِصَاصِ التَّوْثُرِ الْاجْتِمَاعِيِّ وَإِعْطَاءِ انْطِبَاعٍ بِوُجُودِ دِيمُقْرَاطِيَّةٍ جَارِيَةٍ، بَيْنَمَا هِيَ تُسَهِّمُ فِي تَكْرِيسِ الْهَيْمَنَةِ الْمُؤَسَّسِيَّةِ لِأَذْرُعِ السُّلْطَةِ⁷¹ (يُقَابِلُ هَذَا الصِّنْفُ تَقْرِيْباً الْفِئَةِ الْأُولَى فِي سُلْمِ أَرْنَشْتَاين)، فَإِنَّ الْأَمْرَ فِي حَالَةِ الْمِشَارَكَةِ الْجُزْئِيَّةِ لَا يَخُولُ لِلْفَاعِلِينَ إِلَّا سُلْطَةُ التَّأثيرِ فِي الْقَرَارَاتِ أَوْ فِي أَطْرَافِ مِنْهَا، دُونَ أَنْ تَكُونَ لِأَرَاهِمُ قُوَّةٌ مُلْزِمَةٌ⁷²، إِذْ «تَظَلُّ سُلْطَةُ اتِّخَاذِ الْقَرَارِ الْهَيْأَتِيَّةِ عَلَى مُسْتَوَى الْإِدَارَةِ، وَلَا يُمكنُ لِلْمُوظَفِينَ، حَتَّى لو تَمَكَّنُوا مِنَ الْمِشَارَكَةِ، إِلَّا أَنْ يُؤَثِّرُوا فِي هَذَا الْقَرَارِ»⁷³ (يُقَابِلُ هَذَا الصِّنْفُ نَوْعاً مَا الْفِئَةُ الرَّمَزِيَّةُ الثَّانِيَّةُ فِي سُلْمِ أَرْنَشْتَاين). أَمَّا فِي حَالَةِ الْمِشَارَكَةِ الْكَامِلَةِ، فَالْأَمْرُ مُخْتَلِفٌ مِنْ حَيْثِيَّاتٍ مُعَيَّنَةٍ، ذَلِكَ أَنَّ الْمَوَاطِنِينَ فِي هَذِهِ الْمَرْتَبَةِ يَمْتَلِكُونَ سُلْطَةً مُبَاشِرَةً وَفِعْلِيَّةً فِي اتِّخَاذِ الْقَرَارَاتِ، مَعَ تَقَاسُمِ حَقِيقِيٍّ لِلصَّلَاحِيَّاتِ، بِمَا يُجَاوِزُ الصَّعِيدَ الْإِجْرَائِيَّ لِلدِّيمُقْرَاطِيَّةِ إِلَى الصَّعِيدِ الْجَذْرِيِّ الْمَقَاصِدِيِّ بِمَا هُوَ تَوْزِيعٌ مُنْصِفٌ لِلْسُّلْطَةِ السِّيَاسِيَّةِ⁷⁴ (يُقَابِلُ هَذَا الصِّنْفُ الدَّرَجَةَ السَّابِعَةَ وَالثَّامِنَةَ مِنَ الْفِئَةِ الثَّلَاثَةِ فِي سُلْمِ أَرْنَشْتَاين). الْمِثَالُ الَّذِي تَضْرِبُهُ بِاثْمَانِ عَنْهَا هُوَ الْإِتِفَاقَاتُ الْجَمَاعِيَّةُ فِي صِنَاعَاتِ التَّعْدِينَ وَالسِّيَّارَاتِ، كَتَبَتْ هَذِهِ الْمَنْظَرَةَ السِّيَاسِيَّةَ مَا يَأْتِي: «فِي هَذِهِ الْمَنَاطِقِ، تَصَرَّفَتْ مَجْمُوعَاتٌ مِنَ الْعُمَالِ بِصُورَةٍ مُسْتَقْلِلَةٍ تَقْرِيْباً، دُونَ سَيْطَرَةٍ إِدَارِيَّةٍ، بِصِفَتِهَا مَجْمُوعَاتٌ تُدَارُ ذَاتِيًّا، وَتَتَّخِذُ قَرَارَاتِهَا الْخَاصَّةَ بِشَأْنِ عَمَلِيَّةِ الْعَمَلِ الْيَوْمِيَّةِ. فِي هَذَا النَّوعِ مِنَ الْحَالَاتِ، خَاصَّةً عِنْدَ أَذْنَى مُسْتَوَى مِنَ التَّنْظِيمِ الْهَرَمِيِّ لِلْمَصْنَعِ، لَا يُوْجَدُ «جُزْآن» لِهَمَا سُلْطَاتٍ غَيْرِ مُتَكَافِئَةٍ فِي صُنْعِ الْقَرَارِ، بَلْ مَجْمُوعَةٌ مِنَ الْأَفْرَادِ الْمَتَسَاوِينَ الَّذِينَ يَجِبُ أَنْ يَتَّخِذُوا قَرَارَاتِهِمُ الْخَاصَّةَ فِي كَيْفِيَّةِ تَوْزِيعِ الْعَمَلِ أَوْ أَذَانِهِ»⁷⁵. وَأَمَعْنَتْ بِاثْمَانِ Pateman فِي تَفْصِيلِ أَطْرُوحَتِهَا قَائِلَةً إِنَّهُ يُمكنُ وَصْفُ حَالَاتٍ مِنَ هَذَا النَّوعِ بِأَنَّهُا مُشَارَكَةٌ كَامِلَةٌ، أَيْ أَنَّ هَذَا الشَّكْلَ مِنَ الْمِشَارَكَةِ «عَمَلِيَّةٌ يَنْعَمُ فِيهَا كُلُّ عُضْوٍ مِنْ أَعْضَاءِ هَيْئَةِ صُنْعِ الْقَرَارِ بِسُلْطَاتٍ مُتَسَاوِيَةٍ لِتَحْدِيدِ نَتِيجَةِ الْقَرَارَاتِ»⁷⁶. وَمِنْ ثَمَّ، فَإِنَّ حَالَةَ الْمِشَارَكَةِ الْجُزْئِيَّةِ تَجْعَلُ الْمِشَارَكِينَ غَيْرَ مُتَسَاوِينَ، مُقَادَ ذَلِكَ عَدَمُ تَنْعُمِهِمْ بِسُلْطَةٍ مُتَسَاوِيَةٍ فِي تَحْدِيدِ الْقَرَارِ؛ إِذْ يُمكنُ لِبَعْضِ الْمِشَارَكِينَ التَّأثيرُ فِيهِ، بَيْنَمَا يُمكنُ لِبَعْضِهِمُ الْآخَرِ اتِّخَاذُهُ. وَعَلَى الْعَكْسِ مِنْ ذَلِكَ، تَتَطَوَّرُ الْمِشَارَكَةُ الْكَامِلَةُ فِي وَضْعٍ يَنْعَمُ فِيهِ الْمَوَاطِنُونَ بِسُلْطَةٍ مُتَسَاوِيَةٍ عَلَى اتِّخَاذِ الْقَرَارِ فِي أَيِّ سَاحَةٍ نَفَاشٍ يَنْخَرِطُونَ فِيهَا. يَتَبَيَّنُ لَنَا، عَلَى مُقْتَضَى مَا أَوْرَدْنَاهُ أَنْفَاءً، أَنَّ الْمَعْيَارَ الَّذِي بِهِ نُمَيِّزُ الدِّيمُقْرَاطِيَّةَ الْكَامِلَةَ مِنَ الدِّيمُقْرَاطِيَّةِ الْجُزْئِيَّةِ هُوَ التَّأثيرُ الْفِعْلِيُّ وَتَوْزِيعُ السُّلْطَةِ، مَا يَجْعَلُهَا لَيْسَتْ مُجَرَّدَ مُشَارَكَةٍ إِجْرَائِيَّةٍ (مِثْلُ الْاجْتِمَاعَاتِ وَالْاِسْتِطْلَاعَاتِ) أَوْ شَكْلًا وَظِيفِيًّا لِإِدْمَاجِ الْمَعَارِضَةِ. وَفَوْقَ ذَلِكَ تُعَدُّ الدِّيمُقْرَاطِيَّةُ التَّشَارِكِيَّةُ عِنْدَ كَارُولِ بِاثْمَانِ عَمَلِيَّةً تَعْلُمُ وَتَنْشِئُ اجْتِمَاعِيَّةً سِيَاسِيَّةً political socialisation فِي رَحَابِهَا يَكْتَسِبُ الْمَوَاطِنُونَ كِفَاءَاتِ اجْتِمَاعِيَّةً سِيَاسِيَّةً، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ تُؤَلِّي أَهْمِيَّةً كَبِيرَةً

للمشاركة في أماكن الحياة الاجتماعية (مثل أماكن العمل) باعتبارها شرطاً لا عنه بُدُّ لتأسيس ديمقراطية حقيقية.

لَا نَمْلِكُ فِي هَذَا السِّياقِ إِلَّا أَنْ نَسْعَى إِلَى الاستفسارِ عَنْ ماهيةِ صُنعِ القرارِ؟ وَعَنْ سُبُلِ التأثيرِ فِي صِناعَتِهِ؟ وَعَنِ المقصودِ مِنَ المساواةِ فِي السُّلْطَةِ؟ بِغَضِّ الطَّرَفِ عَنْ مُساهماتِ كارول باتمان Carole Pateman وThomas Webler واورتن رين Ortwin Renn، فَإِنَّ تدقيقَ النَّظَرِ فِي الديمقراطيةِ المعاصرةِ يُفْضِي إِلَى القولِ بِأَنَّ التَّصْويتَ هُوَ الاختبارُ الدَّقِيقُ الْوَحِيدُ لآليةِ المشاركةِ، وَعَلَيْهِ يُعَدُّ جَدُولُ التَّصْويتِ الحَدُّ الْأقصى الَّذِي يُمْكِنُ الْقِيامُ بِهِ، لِيَكُونَ لِمُساهمةِ المواطنينِ وَزْنَ. لِهَذَا الاعتبارِ ذَهَبَتْ كارول باتمان، عَلَى سَبِيلِ المِثَالِ، إِلَى أَنَّ الإضفاءَ التَّامَّ لِلطَّابعِ الدِّيمقراطيِّ عَلَى المَصْنَعِ مُتَوَقَّفٌ عَلَى اخْتِيارِ العُمالِ المَدِيرِ الَّذِي يُريدُونَهُ مِنْ طَرِيقِ التَّصْويتِ⁷⁷. وَالْبَدِيلُ إِذَنْ إِمَّا أَنْ يَكُونَ الدِّيمقراطيةِ المباشرةِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ دَقِيقاً غَايَةُ الدِّقَّةِ حَتَّى عِنْدَمَا تُقَدَّمُ الدِّيمقراطيةُ فِي إطارِ الْأَدَبِ التَّشارِكِيِّ⁷⁸، وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ الْأَشْكالُ الكَلاسيكيةُ لِلدِّيمقراطيةِ المباشرةِ (الْمُتَبَنِيَّةِ عَلَى الاسْتَفْتاءاتِ وَالْمَبَادِرَاتِ)، الَّتِي تَجْعَلُنَا خَارِجَ نِطاقِ هَذِهِ المادَّةِ⁷⁹. بِمُوجِبِ المَذْكَورِ سَالِفاً، فَإِنَّ الطَّرِيقَةَ الْأَكْثَرُ اعْتِماداً فِي مَجالِ النُّظَرِيَّةِ التَّشارِكِيَّةِ لِإِعْطاءِ وَزْنٍ لِلْمُشاركةِ الْفَرْدِيَّةِ فِي صُنعِ القرارِ هِيَ مُمارسَةُ التَّصْويتِ. وَنُلاحظُ، مِنْ حَيْثِيَّاتٍ كَثِيرَةٍ، أَنَّ نَظَرِيَّةَ الدِّيمقراطيةِ القائمةَةَ عَلَى المُشاركةِ لَتَبْدُو وَكَأَنَّهَا تَجِدُ هُنَا مَنَفَذَ اتِّصالٍ إِضافيٍّ بِالْأَيَّاتِ الدِّيمقراطيةِ التَّمثيليةِ، فَهِيَ، إِلَى جَانِبِ أَساسِ التَّمثِيلِ، تُشاطرُها قاعِدَةُ التَّصْويتِ. هَذَا هُوَ عَلَى وَجْهِ الدِّقَّةِ الْقَيْدُ الَّذِي تَرَسَّفُ فِيهِ نَظَرِيَّةُ سُلْطَةِ صُنعِ القرارِ فِي الدِّيمقراطيةِ التَّشارِكِيَّةِ، لَكِنْ اتَّخَذَ الْقَراراتِ عَلَى أَساسِ تَدَاوُلِيٍّ يَسْمَحُ بِتَخْطِئِهِ. وَلَيْسَ بِغَرِيبٍ أَنْ يُوكَّدَ مَنْظَرُ الدِّيمقراطيةِ التَّدَاوُلِيَّةِ أَنَّهَا تَمْضِي قُدْماً فِي عَرْضِ تَفْضِيلاتِ المواطنينِ وَتَقْصِيمِها بِتَوْسُلِ الْحُجَجِ، بَدَلًا مِنَ التَّصْويتِ كَمَا هُوَ الْحالُ فِي الدِّيمقراطيةِ التَّمثيليةِ.

إِنَّ التَّعْبِيرَ عَنْ تَفْضِيلاتِ المواطنينِ لَهُوَ فِي واقعِ الْأَمْرِ الْأَلْيَةُ الَّتِي يَجِبُ أَنْ تَسْمَحَ بِاتِّخاذاِ قَرارٍ دُونَما حَاجَةٍ إِلَى التَّصْويتِ. وَبَدَلًا مِنْ تَجْميعِ التَّفْضِيلاتِ الَّتِي جَرى إِنْشاؤها أَوْ تَنْفِيزُها خَارِجاً (خَارِجَ المَدَاوِلَةِ)، تَمْضِي الدِّيمقراطيةُ التَّدَاوُلِيَّةُ إِلَى الْأَمَامِ بِوساطَةِ التَّعْبِيرِ عَنِ التَّفْضِيلاتِ فِي غُضُونِ المَنافِشَةِ الَّتِي فِي رِحالِها تَتَكَوَّنُ حِيناً وَتَتَعَدَّلُ حِيناً آخَرَ، بِقَدْرِ ما تَسْمَحُ بِمُوازَنَتِها وَتَقْصِيمِها⁸⁰، بِما يُحَقِّقُ تَنْفِيزَها وَصَفْلَها دَاخِلِيًّا (فِي عَرْضِ المَدَاوِلَةِ). إِذْ فَوْقَ كَوْنِ المَدَاوِلَةِ «عَمَلِيَّةٌ يَحْصُلُ بِواسِطَتِها التَّعْبِيرُ عَنِ التَّفْضِيلاتِ الْأُولِيَّةِ حَيْثُ تُؤْخَذُ آراءُ الْآخَرِينَ فِي الْاعتِبَارِ»⁸¹. فَإِنَّها مَقامٌ لِلرَّابِطِ وَالتَّفاعُلِ، ذَلِكُمْ ما أَشارَ إِلَيْهِ دَرِيك Dryzek بِقَوْلِهِ إِنَّ «الدِّيمقراطيةَ التَّدَاوُلِيَّةَ تَتَطَلَّبُ تَحْويلَ التَّفْضِيلاتِ إِلَى تَفاعُلٍ»⁸². يَقَعُ ذَلِكُ بِتَوْسُلِ عَمَلِيَّةٍ جَدَلِيَّةٍ يَجْري فِيها تَبادُلُ التَّسْوِيعِ وَالتَّحاجُّجِ لِدَعْمِ المواقِفِ الْمُتَبَايِنَةِ الْمُتَنافِسةِ. ما مِنْ شَيْءٍ مِنْ أَنَّ سِرَّ الْجُودَةِ فِي لِنَظَرِيَّةِ الدِّيمقراطيةِ التَّدَاوُلِيَّةِ يَكْمُنُ فِي إقْناعِ المُشاركينَ فِي العَمَلِيَّةِ التَّدَاوُلِيَّةِ بَعْضُها بِوساطَةِ النِّقاشِ وَبِهِ يَتَوَصَّلُونَ إِلَى قَراراتٍ أَقْرَبَ إِلَى التَّكاملِ. مِنْ وَجْهِ النُّظَرِ هَذِهِ، تَقُومُ الدِّيمقراطيةُ التَّدَاوُلِيَّةُ عَلَى الْعَقْلِ، فَالْناَسُ مُقْتِنِعُونَ بِقُوَّةِ الْحُجَّةِ الْأَفْضَلِ. وَبِصُورَةٍ أَكْثَرُ تَحْديدًا، تَسْتَنِدُ المَدَاوِلَاتُ إِلَى التَّدَفُّقاتِ الْأَفْهِيَّةِ لِلتَّواصُلِ، وَمُنْتَجِي المَحْتَوَى الْمُتَعَدِّدِ، وَالإمكانياتِ الموسَّعةِ لِلتَّفاعُلِ، والمُواجهةِ عَلَى أَساسِ الْحُجَجِ الْعَقْلانيَّةِ

والاستماع المتبادل⁸³. عِنْدَمَا تُقِيمُ الدِّيمُقْرَاطِيَّةُ التَّدَاوُلِيَّةُ الْخِطَابَ مَصْدَرًا مُسْتَقْلًا لِلسُّلْطَةِ، فَإِنَّهَا تُصْبِحُ بِالْأُخْرَى دِيمُقْرَاطِيَّةً اسْتِطْرَاطِيَّةً.

لِئِنْ أُعْطِيَ التَّصْوِيتُ شَأْنًا أَكْثَمَ لِصَانِعِي الْقَرَارِ فِي الدِّيمُقْرَاطِيَّةِ التَّشَارِكِيَّةِ، فَإِنَّ قُوَّةَ الْحَاجَةِ هِيَ الَّتِي تَهَبُ وَزْنَ أَقْوَى فِي الدِّيمُقْرَاطِيَّةِ التَّدَاوُلِيَّةِ. عِنْدَمَا يَكُونُ الْقَرَارُ نَتِيجَةً مُبَاشِرَةً لِعَمَلِيَّةٍ تَدَاوُلِيَّةٍ، فَإِنَّ هَذَا الْقَرَارَ يَكْتَسِبُ قِيَمَةً مُضَافَةً، مُقَارَنَةً بِالْقَرَارِ الَّذِي تَمَّ اتِّخَاذُهُ مِنْ طَرِيقِ التَّصْوِيتِ. هُنَاكَ تَوْكِيدٌ آخَرٌ لِمُنْظَرِي الدِّيمُقْرَاطِيَّةِ التَّدَاوُلِيَّةِ مَدْعَاهُ أَنَّهُ إِذَا يَحْصُلُ اتِّخَاذُ الْقَرَارَاتِ مِنْ سَبِيلِ إِقْنَاعِ الْآخَرِينَ بِالْحُجَجِ الْجَيِّدَةِ، فَإِنَّ جَمِيعَ الْمَشَارِكِينَ سَيُعْرِضُونَ عَنِ الْمَوَافَقَةِ عَلَيْهَا. وَبِهَذَا الْمَعْنَى، فَإِنَّ الدِّيمُقْرَاطِيَّةَ التَّدَاوُلِيَّةَ تُعَدُّ دِيمُقْرَاطِيَّةً تَوَافُقِيَّةً لَا تُفْرَضُ فِيهَا الْأَرَاءُ، بَلْ تَتَلَقَّى إِلَى أَنْ يَمِيلَ رُوحُ الْجَمَاعَةِ إِلَى رِجَاحَةِ الدَّلِيلِ.

وَفَقْ لْجُوشَا كُوهِين Joshua Cohen، تَهْدِفُ الْمَدَاوِلَةُ الْمِثَالِيَّةُ إِلَى التَّوَصُّلِ إِلَى تَوَافُقٍ عَقْلَانِيٍّ مَدْفُوعٍ بِتَعْلِيلَاتٍ مُقْنِعَةٍ لِلْجَمِيعِ. فِي نَهَايَةِ الْمَطَافِ، تَضَعُ الْمَدَاوِلَاتُ الْأَفْرَادَ فِي وَضْعٍ يُمْكِنُهُمْ مِنَ الْإِفْلَاتِ مِنْ مُجَرَّدِ الدَّعْوَةِ إِلَى الْمَصْلَحَةِ، وَيُسَهِّلُ عَلَيْهِمُ الْعُثُورَ عَلَى حَلٍّ تَوَافُقِيٍّ وَيُلْبِي الْمَصْلَحَةَ الْعَامَّةَ فِي الْقَضِيَّةِ قِيْدُ الْمُنَاقَشَةِ⁸⁴.

تَبَعًا لِهَذَا التَّمُودَجِ، «يَجْرِي تَنْظِيمُ التَّقَاشِ السِّيَاسِيِّ فِي مَفَاهِيمَ بَدِيلَةٍ، بِمَا يَخْدُمُ الصَّالِحَ الْعَامَّ»، ثُمَّ إِنَّهُ «لِيُبْرَزُ هَوِيَّاتُ الْمَوَاطِنِينَ وَمَصَالِحُهُمْ بِطَرِيقَةٍ تُسَهِّلُ فِي بِنَاءِ هَذَا الصَّالِحِ الْعَامِّ»⁸⁵. وَيَتَبَنَّى أَنْ تَمْنَعُ فَضِيلَةُ ضَبْطِ النَّفْسِ الدِّيمُقْرَاطِيَّةِ الْأَفْرَادَ مِنَ الْاِقْتِصَارِ عَلَى السَّعْيِ وَرَاءَ مَصَالِحِهِمُ الْخَاصَّةِ، لَا سِيَّمَا إِذَا مَا تَدَافَعَتْ وَالْمَصْلَحَةُ الْعَامَّةُ، إِذْ لَا مُتَقَدِّمٌ وَلَا مُتَأَخَّرٌ فِي حَالَةِ التَّنَازُعِ بَيْنَ الْمَصَالِحِ أَنْ يَقْضِيَ الْعَقْلُ التَّوَاصُلِيُّ بِتَرْجِيحِ تَحْقِيقِ الْمَصَالِحِ الْمَشْتَرَكَةِ.

وَيُضَيِّفُ بَرزبورسكي Przeworsky أَنَّ «الْمَدَاوِلَاتِ (...) يُمَكِّنُ أَنْ تُبْرَزَ أَسْبَابُ اتِّخَاذِ الْقَرَارِ [بِالتَّصْوِيتِ] وَتُوضَحَ أَسْبَابُ عَدَمِ اتِّخَاذِهِ»⁸⁶. يُلْفِثُ كُوهِين Cohen انتباهنا إِلَى إِمْكَانِ فَشَلِ الْانْتِهَاءِ إِلَى حَلٍّ تَوَافُقِيٍّ، إِذْ قَالَ: «عِنْدَمَا يُعْجَزُ عَنِ الْعُثُورِ عَلَى سَبَبٍ تَوَافُقِيٍّ، قَدْ تَنْتَهَيِ الْمَدَاوِلَاتُ بِالتَّصْوِيتِ». فِي هَذَا الْوَضْعِ، مِنْ الْمَقْدُورِ تَأْوِيلُ التَّصْوِيتِ فِي نَهَايَةِ الْعَمَلِيَّةِ التَّدَاوُلِيَّةِ بِطَرِيقَةٍ مَا عَلَى أَنَّهُ فَشَلُ الْمَدَاوِلَةِ الدِّيمُقْرَاطِيَّةِ. لَكِنْ هَذَا لَا يَعْنِي أَنَّ الْمَدَاوِلَاتِ الدِّيمُقْرَاطِيَّةَ لَيْسَ لَهَا قَوَائِدُ جَوْهَرِيَّةٌ، فَلَوْلَا مَزَايَاهَا الْكَامِنَةُ، مَا ذَهَبَ فَيرون Fearon إِلَى حِسَابِهَا السَّبَبُ الْوَجِيهَ الْأَوَّلُ الَّذِي يَخْدُو الْأَفْرَادَ عَلَى مُنَاقَشَةِ قَضِيَّةٍ مَا بَدَلًا مِنْ مُجَرَّدِ التَّصْوِيتِ عَلَيْهَا، فَإِذَا كَانَ التَّصْوِيتُ مُوجِدًا الْقَرَارَ، فَإِنَّ الْمَدَاوِلَةَ مُسَوَّغٌ لَهُ؛ يَقُولُ فِي ذَلِكَ: «يُمْكِنُ الْقَوْلُ إِنَّ مَجْمُوعَةً مِنَ الْأَشْخَاصِ الَّذِينَ يَرْغَبُونَ فِي اتِّخَاذِ قَرَارٍ جَمَاعِيٍّ قَدْ يَرْغَبُونَ فِي مُنَاقَشَةِ الْقَضِيَّةِ بَدَلًا مِنْ مُجَرَّدِ التَّصْوِيتِ إِذَا (أ) لَمْ يَسْمَحْ إِجْرَاءُ التَّصْوِيتِ بِالْكَشْفِ عَنِ الْمَعْلُومَاتِ الْخَاصَّةِ بِالِدِّقَةِ نَفْسِهَا الَّتِي تُبَيِّحُهَا الْمُنَاقَشَةُ الْحُرَّةُ؛ (ب) إِذَا لَمْ تَكُنِ التَّفْضِيلَاتُ الْفَرْدِيَّةُ لِلنَّتَائِجِ الْمُحْتَمَلَةِ مُتَبَايِنَةً إِلَى قَدَرٍ يَجْعَلُ مُنَاقَشَتَهُ مِنْ نَوْعِ «الْحَدِيثِ الْمَجَانِيٍّ مِنْ غَيْرِ إِلْزَامٍ وَلَا تَكْلُفَةٍ» «cheap-talk» غَيْرَ مُثْمَرَةٍ [مَعْلُومَاتِيًّا] وَلَا مِنْهَا

خِلافًا لِذَلِكَ، يُظْهِرُ بَعْضُ الْمُؤَلِّفِينَ أَنَّ الْمَدَاوِلَاتِ وَالتَّصْصِوتَ مُتَوَافِقَانِ وَيَخْدُمَانِ بَعْضُهُمَا بَعْضًا. فَطَبَقًا لِدَيْفِيد ميلر David Miller، فَإِنَّ الْمَدَاوِلَاتِ مُفِيدَةٌ فِي مُعَالِجَةِ التَّحْدِيَّاتِ الَّتِي يَفْرُضُهَا الْاجْتِمَاعِيُّ عَلَى النَّظَرِيَّةِ الدِّيمُقْرَاطِيَّةِ. وَيُورِدُ ميلر بَعْضًا مِنْ هَذِهِ التَّحْدِيَّاتِ فِي قَوْلِهِ: «وَلَا تُوجَدُ أَيُّ قَاعِدَةٍ لِتَوْحِيدِ التَّفْضِيلَاتِ الْفَرْدِيَّةِ، الَّتِي تَتَسَمَّى بِوُضُوحٍ بِالْإِنْصَافِ وَالْعَقْلَانِيَّةِ، وَمِنْ ثَمَّ نَعْلُو وَتَتَفَوَّقُ عَلَى الْقَوَاعِدِ الْأُخْرَى الْمُمْكِنَةِ؛ وَتَخْضَعُ كُلُّ قَاعِدَةٍ تَقْرِيبًا لِلتَّلَاغُبِ الْاِسْتِرَاطِيغِيِّ، حَيْثُ إِنَّهُ حَتَّى لَوْ أُسْفِرَتْ عَنْ نَتِيجَةِ مَعْقُولَةٍ لِمَجْمُوعَةٍ مُعَيَّنَةٍ مِنَ التَّفْضِيلَاتِ، إِذَا صَوَّتَ الْجَمِيعُ بِإِخْلَاصٍ، فَإِنَّ النَّتِيجَةَ الْفِعْلِيَّةَ سَتَظَلُّ عَرْضَةً لِلتَّشْوِيهِ بِسَبَبِ التَّصْصِوتِ الْاِسْتِرَاطِيغِيِّ».⁸⁸

يَذْهَبُ ميلر إِلَى أَنَّ الدِّيمُقْرَاطِيَّةَ التَّدَاوِلِيَّةَ تَمْتَلِكُ الْمَوَارِدَ الْلازِمَةَ لِلتَّخْفِيفِ مِنْ مَشَاكِلِ الْاِخْتِيَارِ الْاجْتِمَاعِيِّ الَّتِي تُوَاجِهُهَا الْمَجْتَمَعُ السِّيَاسِيُّ، يُقَدِّمُ الْمَوْرِدَ الْأَوَّلُ الْكَيْفِيَّةَ الَّتِي تَحُدُّ فِيهَا الْمَدَاوِلَاتُ مِنْ طَيْفِ التَّفْضِيلَاتِ الَّتِي يَجِبُ دَمْجُهَا فِي الْحُكْمِ النَّهَائِيِّ. وَيَعْرِضُ الْمَوْرِدَ الثَّانِي الطَّرِيقَةَ الَّتِي مِنَ الْإِمْكَانِ أَنْ تُؤَوَّلَ بِهَا الْمَعْرِفَةُ بِبِنْيَةِ الْأَرَاءِ فِي الْهَيْئَةِ التَّدَاوِلِيَّةِ فِي اخْتِيَارِ قَاعِدَةٍ صُنْعِ الْقَرَارِ.⁸⁹

وَالْحَقُّ أَنَّ «الدِّيمُقْرَاطِيَّةَ التَّدَاوِلِيَّةَ، بِسَبَبِ ظُهُورِ مُحَاوَلَاتِ السَّيْطَرَةِ أَثْنَاءَ الْمَدَاوِلَاتِ عَلَى تَفْضِيلَاتِ النَّاسِ، بِمُسْتَطَاعِهَا نَظَرِيًّا أَنْ تَخْتَارَ أَنْسَبَ الْإِجْرَاءَاتِ لِصُنْعِ الْقَرَارِ فِي الْقَضِيَّةِ الْمَعْنِيَّةِ»⁹⁰، يَبْدَأُ أَنْ اسْتِخْدَامَ التَّدَاوِلِ الدِّيمُقْرَاطِيِّ الْقَائِمِ عَلَى الْمَحَاجَةِ لَا يَفْتَنِرُ فِي الْإِجْرَاءَاتِ الْجَدِيدَةِ عَلَى التَّمْيِيزِ الْجَوْهَرِيِّ بَيْنَ النَّظَرِيَّةِ التَّشَارِكِيَّةِ وَالنَّظَرِيَّةِ التَّدَاوِلِيَّةِ لِلدِّيمُقْرَاطِيَّةِ، بَلْ يَشْمَلُ عَلَى وَجْهِ التَّحْدِيدِ نَتِيجَةَ الْمَدَاوِلَاتِ. وَبِالْفِعْلِ، مَا دَامَ أَنَّ تَصَوُّرَ اسْتِنْعَادِ هَذِهِ الْمَنَاقَشَاتِ فِي حَالَةِ الْمَشَارَكَةِ لَيْسَ بِوَارِدٍ، فَلَا مَعْدِلَ عَنْ الْأَنَّ تَنْخَصِرُ خُصُوصِيَّةُ النَّظَرِيَّةِ التَّدَاوِلِيَّةِ فِي الْمَنَاقَشَةِ، وَإِنَّمَا فِي نَتِيجَتِهَا أَيْضًا، أَيُّ فِي قَرَارٍ تَوَافُقِيٍّ بَيْنَ الْفَاعِلِينَ الْمُتَحَاوِرِينَ. مِيزَةُ إِمَاطَةِ الثَّمَامِ عَنْ هَذَا الْاِخْتِلَافِ بَيْنَ النَّظَرِيَّةِ التَّشَارِكِيَّةِ وَالنَّظَرِيَّةِ التَّدَاوِلِيَّةِ لِلدِّيمُقْرَاطِيَّةِ تَكْمُنُ فِي أَنَّهُ مِنْ سَبِيلِ هَذَا الْاِخْتِلَافِ تَجْعَلُ النَّظَرِيَّةُ الثَّانِيَّةُ الْأَوَّلَى مُثْمَرَةً. وَهِيَ تَفْعَلُ ذَلِكَ بِقَدَرٍ مَا تَضْمَنُ الْمَدَاوِلَاتُ، يَوْصِفُهَا أَسْلُوبًا لِصُنْعِ الْقَرَارِ بِمَنَوَالٍ مُخْتَلِفٍ عَنِ التَّصْصِوتِ، نَوْعِيَّةَ الْمَشَارَكَةِ فِي صُنْعِ الْقَرَارِ، وَفَعَالِيَّةَ الْقَرَارَاتِ فِي طَوْرِ التَّنْفِيزِ. وَلَا غَضَاضَةَ مِنْ عَدِّ الْمَشَارَكَةِ أَرْقَى نَوْعًا، إِذَا أَفْضَتْ إِلَى تَوَافُقٍ فِي الْأَرَاءِ وَائْتِلَافٍ فِي الزُّرُوعِ وَاسْتَعْنَتْ عَنْ مَشَقَّةِ التَّصْصِوتِ وَتَدَافُعِ الْأَصْوَاتِ.

يَتَبَيَّنُ لَنَا، عَلَى أَعْقَابِ مَا ذُكِرَ أَيْفًا، أَنَّ الصِّيَاغَةَ الْأَكْثَرُ اكْتِمَالًا لِلدِّيمُقْرَاطِيَّةِ التَّشَارِكِيَّةِ تَتَحَقَّقُ غَايَةً التَّحَقُّقُ فِي الدِّيمُقْرَاطِيَّةِ التَّدَاوِلِيَّةِ. وَلَيْسَ هَذَا مِنْ بَابِ الْمَصَادِفَةِ، وَإِنَّمَا مَرَدُّ ذَلِكَ إِلَى انْطَوَاءِ النَّظَرِيَّةِ التَّشَارِكِيَّةِ عَلَى فِكْرَةِ الْمَدَاوِلَةِ، بِاعْتِبَارِهَا، سَوَاءً بِسَوَاءٍ، كَفَاءَةً وَآلِيَّةً مِنَ الْمَكْنَةِ أَنْ تَتَجَاوَزَ التَّصْصِوتَ وَتَخْلُصَ إِلَى التَّوَافُقِ.

عِلَاوَةً عَلَى هَذَا كُلِّهِ، ذَهَبَ بِيْتَرُ بِاشِرَاشُ فِي عَامِ 1975 إِلَى أَنَّ الْمَشَارَكَةَ الدِّيمُقْرَاطِيَّةَ: «عَمَلِيَّةٌ يَتَقَوَّمُ فِيهَا الْفُرَادُ بِصِيَاغَةِ قَرَارَاتٍ وَمُنَاقَشَةٍ وَاتِّخَاذِهَا بِشَأْنِ الْقَضَايَا الْعَامَّةِ الَّتِي تَهْمُهُمْ وَتُؤَثِّرُ فِي حَيَاتِهِمْ. إِنَّهَا عَمَلِيَّةٌ مُتَوَاصِلَةٌ إِلَى حَدٍّ مَا وَجَّهًا لَوَجْهِ، فِيهَا يَكُونُ لِلْمَشَارِكِينَ صَوْتُ مُتَسَاوٍ تَقْرِيبًا فِي جَمِيعِ الْمَرَاكِجِ، مِنْ صِيَاغَةِ الْأَسْئَلَةِ إِلَى تَحْدِيدِ السِّيَاسَاتِ»⁹¹.

تَبَعًا لِإِبَاشِرَاش، فَإِنَّ مِنْ فَوَائِدِ الْمَشَارَكَةِ السِّيَاسِيَّةِ فَهْمُ مَوَاقِفِ الْمَوَاطِنِينَ وَتَحْسِينُ الْأَدَاءِ السَّلِيمِ لِنِظَامِ الْحُكْمِ وَإِحْدَاثُ تَغْيِيرَاتٍ مُعْتَبَرَةٍ فِي اهْتِمَامَاتِ الْأَفْرَادِ؛ فِي مَوَاقِفِهِمْ وَمَنْظُورَاتِهِمْ وَقِيَمِهِمُ الْمَفْضَلَةِ⁹². يَظُنُّ، بِنَاءً عَلَى هَذَا التَّحْلِيلِ، أَنَّهُ عَلَى عَدَمِ وُجُودِ مُصْطَلَحِ التَّدَاوُلِ فِي مُعْجَمِ الدِّيمُقْرَاطِيَّةِ التَّشَارِكِيَّةِ، فَإِنَّ فِكْرَةَ مَا يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ عَلَيْهِ الْمَشَارَكَةُ السِّيَاسِيَّةُ الْحَقِيقِيَّةُ مُطَابِقَةً، مِنْ جِهَةِ الْمَضْمُونِ، لِمَا سَيُطْلَقُ عَلَيْهِ، بَعْدَ أَكْثَرِ مِنْ عَقْدٍ مِنَ الزَّمَانِ، التَّدَاوُلِ؛ أَيْ أَنَّ الْأَمْرَ يَتَعَلَّقُ بِالإِسْهَامِ فِي الصَّالِحِ الْعَامِّ الَّذِي يُفْهَمُ عَلَى أَنَّهُ الْمَسْلُكُ الْمَفْضَلُ الَّذِي تُحَدِّدُهُ الْمَنَاقِشَةُ الْمَبْنِيَّةُ عَلَى حُجَجٍ وَمُسَوِّغَاتٍ مَعْقُولَةٍ.

مِنْ الْجَدِيرِ بِالذِّكْرِ ذَهَابُ بَرْنَارْدِ جِيْبِكِي Bernard Gbikpi إلى وُجُودِ أَمَثَلَةٍ ظَاهِرَةٍ أُخْرَى عَلَى الْمَسَارَاتِ الْمُؤَدِّيَةِ مِنْ نَظَرِيَّاتِ الْمَشَارَكَةِ إِلَى نَظَرِيَّاتِ الْمَدَاوِلَاتِ، مِنْ دُونِ اسْتِخْدَامِ مُصْطَلَحِ «مَدَاوِلَةٍ» صَرَاحَةً. لِتَغْيِيرِ زَايِهِ هَذَا يُقَدِّمُ عَلَى سَبِيلِ الْمِثَالِ أَيْحَاثَ رَيْنِ وَوَيْلِرِ وَوِيدْمَانِ⁹³ Webler et Wiedemann عَنْ نَمَازِجِ تَقْيِيمِ الْمَشَارَكَةِ، وَأَبْحَاثَ شِيرِيلِ سِيمِرِيلِ كِينِغِ Cheryl Simrell King وكَاثَرِينِ إِمِ فِيلْتِي Kathryn M. Feltey وَبَرِيدَجِيتِ أُونِيلِ سُوْسِيلِ Bridget O'Neill Susel⁹⁴ بِشَأْنِ مَسْأَلَةِ الْمَشَارَكَةِ الْعَامَّةِ الْحَقِيقِيَّةِ. اسْتِنَادًا إِلَى تَحْلِيلِ أَجْرَاهُ دِيْفِيدِ بَرَايِرُوكِ David Braybrooke بِشَأْنِ الْمَسَائِلِ الْمَفَاهِيمِيَّةِ الْمُتَّصِلَةِ بِمَعْنَى الْمَشَارَكَةِ، بَدَتْ التَّدَاوُلِيَّةُ السِّيَاسِيَّةُ فِي إِطَارِ الْحُكْمِ الدِّيمُقْرَاطِيِّ عَلَى أَنَّهَا أَفْضَلُ شَكْلٍ مِنْ أَشْكَالِ الدِّيمُقْرَاطِيَّةِ التَّشَارِكِيَّةِ، وَهَكَذَا جَرَى الْاسْتِعَاضَةُ عَنْ مُصْطَلَحِ «مَشَارَكَةٍ» بِمُصْطَلَحِ «مَدَاوِلَةٍ».

تَذْهَبُ إِمِيلِي هُوبْمَانُ Emily Hauptmann فِي حَدِيثِهَا عَنِ التَّحَوُّلِ مِنَ الْمَشَارَكَةِ إِلَى الْمَدَاوِلَةِ بِصِفَتِهِ تَغْيِيرًا كَبِيرًا فِي الْمَشْرُوعِ النَّقْدِيِّ لِلنَّظَرِيَّةِ الدِّيمُقْرَاطِيَّةِ، إِلَى أَنَّ «مُعْظَمَ مُنْظَرِي الدِّيمُقْرَاطِيَّةِ التَّدَاوُلِيَّةِ، عَلَى الرُّغْمِ مِنْ بَعْضِ الْأَنْتِقَادَاتِ الْأَسَاسِيَّةِ الْمَوْجَّهَةِ إِلَى وَجْهَةِ النَّظَرِ التَّشَارِكِيَّةِ، مَا زَالُوا يُصِرُّونَ عَلَى أَنَّ الْمَدَاوِلَةَ نَوْعٌ مِنَ الْمَشَارَكَةِ أَوْ أَنَّهَا صِفَةٌ جَوْهَرِيَّةٌ لَهَا»⁹⁵. وَلَقَدْ جَرَى دَيْنِيسُ طُومْسُونُ Dennis Thompson وَإِيْمِي غُوْتْمَانُ Amy Gutmann هَذَا الْمَجْرَى بَعْدَمَا حَسِبَا الْمَدَاوِلَةَ نَوْعًا مِنَ الْمَشَارَكَةِ الْمَدْنِيَّةِ الَّتِي تَتَطَلَّبُ فَقَطْ إِصْلَاحَاتٍ مُؤَسَّسِيَّةً مُتَوَاضِعَةً، بَدَلًا مِنَ التَّحَوُّلِ الْجَوْهَرِيِّ⁹⁶. وَلَقَدْ تَلَا جِيْمِسُ بُوِهْمَانُ James Bohman تَلَوَ هَذِهِ الْمَقَارِبَةَ حَتَّى وَصَفَ نَهْجَهُ التَّدَاوُلِيَّ بِأَنَّهُ «رُؤْيَا لِلدِّيمُقْرَاطِيَّةِ التَّشَارِكِيَّةِ»⁹⁷. إِنَّ إِخْلَالَ مُصْطَلَحِ «مَدَاوِلَةٍ» مَحَلَّ مُصْطَلَحِ «مَشَارَكَةٍ»، بِالنِّسْبَةِ إِلَى بَرْنَارْدِ جِيْبِكِي Bernard Gbikpi لَا يَعْنِي أَنَّ هَذَيْنِ الْمَصْطَلَحَيْنِ قَابِلَانِ لِتَعْوِضِ بَعْضُهُمَا بَعْضًا. وَلَيْسَ مَغْزَى ذَلِكَ سِوَى أَنَّ الْمَقْصِدَ الْأَمَثَلُ لِنَظَرِيَّةِ الدِّيمُقْرَاطِيَّةِ التَّشَارِكِيَّةِ وَصُورَتِهَا الْكَامِلَةُ مَائِلَانِ فِي النَّظَرِيَّةِ التَّدَاوُلِيَّةِ.

إِنَّ مَقَارِبَةَ الدِّيمُقْرَاطِيَّةِ التَّدَاوُلِيَّةِ، كَأَخَوَاتِهَا مِنَ الْمَقَارِبَاتِ، لَهَا مَاخُذٌ وَحُدُودٌ، فَهِيَ، حِينَ تُعَانَقُ بِاعْتِبَارِهَا مَبْدَأً، تَبْدُو فِي خِطَابِهَا، مِنْ حَيْثُ هِيَ نَظَرِيَّةٌ، صَرَحًا رَاسِخًا الْأَرْكَانِ، وَأَمَلًا طَيِّعَ الْمَنَالِ؛ لَكِنَّهَا عَلَى أَرْضِ النَّاسِ تَصْطَلِدُ بِصُخُورِ التَّارِيخِ وَأَشْرَاطِ الْحَيَاةِ وَمُقْتَضِيَّاتِ الْاجْتِمَاعِ الْبَشَرِيِّ.

تَنْجَلِي أَوَّلُ الْمُعْتَرِضَاتِ الَّتِي تُجَايِزُهَا إِذْ نَسْأَلُهَا: مَنْ يَضَعُ مِعْيَارَ «الصَّالِحِ الْعَامِّ»؟ أَيْ صِيغَةً لِلْقَوْلِ تُسْمَعُ وَتُطَاعُ؟ فَمَطْلَبُ أَنْ يَتَكَلَّمَ الْمُتَحَاوِرُونَ «بِاسْمِ الصَّالِحِ الْعَامِّ» يَحْمِلُ فِي طَيَّاتِهِ قَصْرًا؛ فَبِهِ دَعْوَةٌ صَامِتَةٌ

لِلْأَقْلِيَّاتِ كَيْ تَفْنَعَ الْأَغْلَبِيَّةَ بِأَنَّ مَطْلَبَهَا ذَاتُ طَائِعٍ عُمُومِيٍّ. هَذَا الْمُقْتَضَى لَيْسَ رَجِيماً دَائِماً، وَإِنَّمَا قَدْ يَكُونُ شَرْطاً اسْتِحْقَاقٍ لِلِسَّمْعِ؛ فَمَنْ لَمْ يَطَوِّعْ حَدِيثَهُ حَتَّى يَتَنَاسَبَ مَعَ لُغَةِ الْعُمُومِ يُعْزَلُ أَوْ يُشَارُ إِلَيْهِ كَمُتَكَلِّمٍ ذِي نَزْعَةٍ ذَاتِيَّةٍ ضَيِّقَةِ الْأَفْقِ. وَلِذَا صَارَ النَّقْدُ يُصَاحُّ بِلُغَةِ الْعَدَالَةِ وَالْإِنْصَافِ: كَيْفَ لِلْأَقْلِيَّاتِ أَنْ تُعْرَبَ عَنْ أَحْلَامِهَا الْخَاصَّةِ، إِنْ طُلِبَ مِنْهَا أَنْ تَنْضَوِيَ تَحْتَ مُقْتَضَى الْعَامِّ/ الْكُلِّيِّ/ الْكُونِيِّ؟ هَذَا مَا حَدَرَتْ مِنْهُ إِيرِسْ يونغ ولين ساندريز Lynn M. Sanders، اللَّتَانِ أَكَّدَتَا أَنَّ «الْعُمُومِيَّةَ أَوْ الْكُونِيَّةَ / generality/universality» قَدْ تَغْلِقُ أَبْوَابَ التَّمَثِيلِ أَمَامَ شَرَائِحَ لَا تَمْلِكُ أَصْوَانَهُمْ لُغَتَهَا.

ثُمَّ يَأْتِي اعْتِرَاضُ الْمُعْطَى الثَّقَافِيِّ وَالْعَاطِفِيِّ: إِذِ الْإِفْرَاطُ فِي «الْمَوْضُوعِيَّةِ» يَنْزِعُ التَّعَاطُفَ مِنَ النِّقَاشِ، فَيَغْفِلُ عَنْ قَضَايَا الْحِسِّ وَالْوُجْدَانِ وَالْهُوِيَّةِ. هَكَذَا يَتَحَوَّلُ الْخُطَابُ الْعَقْلَانِيُّ وَحْدَهُ إِلَى قِنَاعٍ قَدْ يُضْمِرُ اسْتِمْرَارَ هَيْمَنَةِ رُمُوزِيَّةٍ لَيْسَتْ أَقْلًا فَتَكُنَّا مِنَ النُّفُودِ الْمَادِيِّ.

خَلِيقٌ بِالذِّكْرِ أَنَّ قَوَاعِدَ التَّدَاوُلِ الْمَثَالِيَّةِ، وَالْحَيَادِ، وَتَكَافُؤُ فُرْصِ الْكَلَامِ، وَإِبْعَادُ النُّفُودِ الْقَسْرِيِّ، قَوَاعِدُ بَرَاقَةِ عَلَى الْوَرَقِ، لَكِنْ لِلْوَاقِعِ إِزْغَامَاتُهُ الْجَارِيَّةُ؛ فَالْسُّلْطَةُ حَاضِرَةٌ فِي الْفَضَاءِ الْعَامِّ كَمَا الْهَوَاءُ، وَالْفُرْصُ الْلُغَوِيَّةُ وَالثَّقَافِيَّةُ لَيْسَتْ مُتَسَاوِيَةً. وَلِذَلِكَ لَا يَكْفِي أَنْ نَضَعَ قَوَاعِدَ لِلْمُنَاقَشَاتِ، وَإِنَّمَا لَا مَنُودِحَةٌ مِنْ أَنْ نَنْصَرِفَ إِلَى آيَاتٍ تُصَحِّحُ التَّفَاوُّتَاتِ: تَأْهِيلُ الْمُشَارِكِينَ، تَعْوِيضُ الْفَجَوَاتِ التَّعْلِيمِيَّةِ، رَصْدُ التَّفَاوُّتِ الرُّمُوزِيِّ، كُلُّهَا عَنَاصِرٌ لَا غَيَّ عَنْهَا. إِنَّمَا مِهْمَةٌ بَطِينَةٌ، لَا تَنْجِزُهَا كَلِمَاتُ الْوَرَقِ وَحْدَهَا.

ثُمَّ هُنَاكَ سُؤَالٌ مُضَادٌّ يَتَلَوَّى فِي الظِّلِّ: هَلْ جَعَلُ «الْمَعْقُولِ» هَدَفًا لِلِاتِّفَاقِ لَا يَنْتَهِي عُمُومًا إِلَى إِسْكَاتِ الصِّرَاعِ الْحَيَوِيِّ، بَلْ إِلَى قَمْعِهِ؟ لَقَدْ نَهَتْ شَانْتَالُ مَوْفُ Chantal Mouffe، مُنْظَرَةُ الدِّيمُقْرَاطِيَّةِ الصِّرَاعِيَّةِ Agonistic Democracy، إِلَى خُطُورَةِ تَنْمِيطِ الصِّرَاعِ وَتَحْوِيلِ السِّيَاسَةِ إِلَى فَضِيلَةٍ هَادِئَةٍ تَقْبَعُ فِي بُرْجٍ عَاجِيٍّ لَا أَحَدٌ يُزْعِجُهَا. ذَلِكَ أَنَّ الصِّرَاعَ السِّيَاسِيَّ لَيْسَ خَطَأً فِي حَدِّ ذَاتِهِ، بَلْ هُوَ مَا يَجْلِي وَجُوهَ الْإِخْتِلَافِ، وَيَكْشِفُ تَعَدُّدَ الْبَدَائِلِ، وَيُقْضِي إِلَى تَغْيِينِ الْخِيَارَاتِ وَتَرْجِيحِ بَعْضِهَا عَلَى بَعْضٍ، وَمِنْ خِلَالِهِ تَتَشَكَّلُ السِّيَاسَاتُ وَتُسْتَقِيمُ الْمُؤَسَّسَاتُ، وَإِذَا أُخْفِيَ تَحْتَ عِبَاءَةِ «الْمَعْقُولِيَّةِ» فَقَدْ نَكُونُ قَدْ سَوَّقْنَا لِشَرْعِيَّةِ تَكْمِيمِيَّةِ muzzling / silencing بِاسْمِ الْعَقْلِ.

لَقَدْ نَفِذَتْ تَجَارِبُ تَدَاوُلِيَّةٌ مُصَغَّرَةٌ، مِنْ مَجَالِسِ الْمَوَاطِنِينَ، وَاسْتِطْلَاعَاتٍ تَدَاوُلِيَّةٍ، وَأُسْفِرَتْ عَنْ نَتَاجٍ مُشْجِعَةٍ عَلَى مُسْتَوَى الْقَهْمِ الْمُتَبَادَلِ وَتَرْقِيَّةِ مُسْتَوَى الْمَعْرِفَةِ بَيْنَ الْمُشَارِكِينَ. وَلَكِنَّمَا بَقِيَتْ جُزْأً صَغِيرَةً لَا تُعْطِي الْجُمْهُورَ وَتَنَوُّعَهُ الْجَدَلِيَّ. وَأَيُّ مُحَاوَلَةٍ لِلتَّمَدُّدِ قَدْ تُفْضِي إِلَى تَجْرِيدِ التَّجَرِبَةِ مِنْ رُوحِهَا، فَتَتَحَوَّلُ إِلَى آدَاءٍ بَرُوتُوكُولِيِّ يَخْدُمُ الْمُخْتَصِّصِينَ بَدَلَ الشَّعْبِ.

دَعُونَا لَا نَجْعَلَ التَّدَاوُلِيَّةَ إِلَهًا وَلَا شَيْطَانًا؛ فَمَا هِيَ إِلَّا أَدَاةٌ مَشْرُوطَةٌ بِخُدُودِهَا: تُعْطِي شَرْعِيَّةً عِنْدَمَا تُدْمَجُ فِي مُؤَسَّسَاتٍ تُعَالِجُ الْقَوَارِقَ الْبِنْيَوِيَّةَ، وَتُنَبِّي مَوَاهِبَ الْإِنْصَابِ وَالتَّعَلُّمِ السِّيَاسِيِّ، وَتَفْتَحُ مَسَاحَةً لِلْاعْتِرَافِ بِالْعَوَاطِفِ وَالْإِخْتِلَافَاتِ الثَّقَافِيَّةِ. إِنَّمَا إِنْ أُعْطِيَتْ بِدُونِ شُرُوطٍ وَلَا مُرَاعِيَّةٍ لِلْقَوَارِقِ، اسْتَحَالَتْ إِلَى سِتَارَةٍ تُخْفِي وَاقِعَ الْهَيْمَنَةِ.

4. خاتمة:

أَسْفَرَ مَقَالُنَا عَنْ جُمْلَةٍ مِنَ النَّتَائِجِ الْمُتَضَافِرَةِ، فِي طَلِيعَتِهَا أَنَّ الدِّيمُقْرَاطِيَّةَ التَّشَارِكِيَّةَ لَا تُخْتَزَلُ فِي مَحْضِ أَلِيَّةٍ مِنَ أَلِيَّاتِ الْحُكْمِ، بَلْ هِيَ مَفْهُومٌ مُرَكَّبٌ وَشَامِلٌ يَقُومُ عَلَى مُؤَسَّسَاتٍ سِيَاسِيَّةٍ فَاعِلَةٍ، مِثْلَ الْمَجَالِسِ الْمَحَلِّيَّةِ وَإِجْرَاءَاتٍ قَانُونِيَّةٍ مَرْنَةٍ، كَالْتَشْرِيعَاتِ الْمَحَلِّيَّةِ، وَقِيَمٍ إِنْسَانِيَّةٍ مُعْيَارِيَّةٍ، مِثْلَ الْعَدَالَةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ Social justice وَالتَّمَكُّينِ الْمَحَلِّيّ local empowerment وَتَكَافُؤِ الْفُرْصِ equal opportunities ، فَضْلاً عَنِ الشَّفَافِيَّةِ transparency وَالمَسَآلَةِ accountability وَالمَسَاوَاةِ equality. وَلَقَدْ أَقْضَى بِنَا النَّظَرُ عَلَى طُولِ هَذَا الْمَقَالِ إِلَى إِدْرَاكِ الدَّوْرِ الَّذِي يُمَكِّنُ أَنْ تَهْضُ بِهِ الدِّيمُقْرَاطِيَّةُ التَّدَاوُلِيَّةُ فِي تَعْصِيدِ الدِّيمُقْرَاطِيَّةِ التَّشَارِكِيَّةِ، إِذْ دَلَّ الْبَحْثُ عَلَى أَنَّ الْمَشَارَكَةَ إِنْ تَرَكَّتْ مِنْ غَيْرِ مَدَاوِلَةٍ اسْتَحَالَتْ إِلَى أَصَوَاتٍ مُتَفَرِّقَةٍ، وَأَنَّ الْمَدَاوِلَةَ إِنْ انْقَطَعَتْ عَنْهَا الْمَشَارَكَةُ لَمْ تَعُدْ إِلَّا أَنْ تَكُونَ نُخْبَوِيَّةً حِجَاجِيَّةً يَمْنَأَى عَنْ حَيَاةِ النَّاسِ وَمَا يَرِيهِمْ. سَاقَ بِنَا الْبَحْثُ، عِلَاوَةً عَلَى مَا تَقَدَّمَ مِنْ نَتَائِجٍ، إِلَى أَنَّ دَرَةَ الْوُقُوعِ فِي الْمَشَارَكَةِ الرَّائِفَةِ- إِذْ هِيَ مَحْضُ تَلَاعِبٍ وَاسْتِعْرَاضٍ- وَتَلَا فِي الْمَشَارَكَةِ الْجُزْئِيَّةِ - إِذْ هِيَ مُشَارَكَةٌ لَا تَنْتَهِي إِلَى تَأْثِيرِ مُؤَسَّسَاتِي فِعْلِيٍّ- مَوْقُوفٌ عَلَى أَنْ يُصَارَ مِنَ الْجَوَارِ الصَّرْفِ إِلَى سِيَاسِيَّاتٍ تَمَكِّنُ فِعْلِيَّةً (مَعْرِفِيَّةً، لُغَوِيَّةً، مَادِيَّةً) وَأُطُرٍ مُؤَسَّسَاتِيَّةٍ لِرَبْطِ الْمَخْرَجَاتِ التَّدَاوُلِيَّةِ بِالمَسَارَاتِ التَّنْفِيزِيَّةِ وَقَوَاعِدِ إِجْرَائِيَّةٍ تَمْنَعُ الْهَيْمَنَةَ الرَّمِّيَّةَ. التَّوَصِيَّاتُ الْمُسْتَقْبَلِيَّةُ:

إِذَا وَقَفْنَا عَلَى مَا لِلْمَشَارَكَةِ وَالْمَدَاوِلَةِ مِنْ شَأْنٍ فِي إِصْلَاحِ الدِّيمُقْرَاطِيَّةِ بِمَا يُؤَلْفَانِهِ مِنْ شَرْطٍ لَا غَيَّ عَنْهُ لِتَجْوِيدِ الْفِعْلِ السِّيَاسِيِّ الْمَشْتَرِكِ وَتَقْوِيَةِ شُرْعِيَّتِهِ، لَمْ يَسْعُنَا إِلَّا أَنْ نُوصِي، سَوَاءً عَلَى الْمُسْتَوَى النَّظَرِيِّ أَمْ عَلَى الْمُسْتَوَى الْعَمَلِيِّ، بِالتَّشْدِيدِ عَلَى تَصْيِيرِ الْهَيَاكِلِ الْمُؤَسَّسِيَّةِ مَرْنَةً، بِمَا يُتَبَحُّ تَمَثِيلاً شَامِلاً لِمُخْتَلِفِ فَنَائِ الْمَجْتَمَعِ، بِصَرْفِ النَّظَرِ عَنْ رَأْسَمَالِهَا الثَّقَافِيِّ وَالْمَادِيِّ، مَعَ تَعْزِيزِ الثَّقَافَةِ الدِّيمُقْرَاطِيَّةِ، بِوَسَاطَةِ بَرَامِجٍ تَثْقِيفِيَّةٍ تُنَبِّئُ الْوَعْيَ الْمَدْنِيَّ وَالتَّجَرِبَةَ السِّيَاسِيَّةَ. وَإِذَا كَانَتِ الْمَشَارَكَةُ الدِّيمُقْرَاطِيَّةُ لَا تَبْلُغُ غَايَتَهَا النَّامَةَ إِلَّا بِمَا يُوفِّرُهُ التَّمَكُّينُ الْفِعْلِيُّ مِنَ الْقَرَارِ وَالتَّنْفِيزِ، فَلَا بُدَّ أَنْ نُوصِي أَيْضاً بِقَرَضِ أَلِيَّاتٍ مُلَزِمَةٍ تَرْجِمُ الْمَخَارِجَ التَّدَاوُلِيَّةَ فِي مَسَارَاتٍ تَنْفِيزِيَّةٍ مُعْلَنَةٍ بِمُؤَشِّرَاتٍ مَكْشُوفَةٍ لِجُمْهُورِ الْمَوَاطِنِ.

5. الهوامش:

¹ Marine Hurard, « La participation citoyenne au développement durable à l'échelle locale en Europe, » Think Tank Européen pour la Solidarité (ASBL), Bruxelles, août 2011, pp. 4-5.

² Ibid.

³ Marion Carrel, « La démocratie participative dans les quartiers populaires: Obstacles et leviers, » Les Cahiers du Pôle, Débat, 15 janvier 2008, p. 12.

⁴ Robert Dahl, Après la révolution, Paris: Calmann-Lévy, 1973, p. 95.

⁵ Archon Fung, « Varieties of Participation in Complex Governance, » Public Administration Review 66 (2006): 66.

See Carole Pateman, Participation and Democratic Theory, Cambridge: Cambridge University Press, 1970.

⁷ Erik Olin Wright, Envisioning Real Utopias, London: Verso, 2010, p. 10.

⁸ A. Decourt et F. Gleize, Démocratie participative en Europe, Les Cahiers de la Solidarité, n° 8. Bruxelles: Les Cahiers de la Solidarité, 2006, p. 15.

⁹ Pateman, Carole. Participation and Democratic Theory. Cambridge: Cambridge University Press, 1970, p.15.

- ¹⁰ Ibid., p.103.
- ¹¹ Ibid., p.45.
- ¹² Ibid., p.105.
- ¹³ Ibid., p.110.
- ¹⁴ Macpherson, C. B. The Life and Times of Liberal Democracy. Oxford: Oxford University Press, 1977, p.10.
- ¹⁵ Ibid., p.43.
- ¹⁶ Ibid., p.47.
- ¹⁷ Ibid., p.69.
- ¹⁸ Ibid., pp.79-78.
- ¹⁹ Ibid., p.94.
- ²⁰ Ibid., pp.99-100.
- ²¹ Ibid., p.107.
- ²² Barber, Benjamin R. La démocratie forte. Paris: Desclée de Brouwer, 1997. (Originally published as Strong Democracy: Participatory Politics for a New Age, 1984.),p. 45.
- ²³ Ibid., p.135.
- ²⁴ Ibid., p.138.
- ²⁵ Ibid., p.170.
- ²⁶ Ibid., p.284.
- ²⁷ Ibid., p.290.
- ²⁸ Ibid., p. 309.
- ²⁹ Ibid., p.321.
- ³⁰ Voir Janet Biehl, Le municipalisme libertaire: La politique de l'écologie sociale, Montréal: Écosociété, 2013.
- ³¹ Andreas Føllesdal, « Survey Article: Subsidiarity, » The Journal of Political Philosophy 6, no. 2 (1998): 231–259.
- ³² John Parkinson, Deliberating in the Real World: Problems of Legitimacy in Deliberative Democracy, Oxford: Oxford University Press, 2006, pp. 166–173.
- ³³ John Stuart Mill, Considérations sur le gouvernement représentatif, Paris: Gallimard, 2009, p. 243.
- ³⁴ Iris Marion Young, Justice and the Politics of Difference, Princeton: Princeton University Press, 1990, p. 251.
- ³⁵ Ibid., p.251.
- ³⁶ Stephen L. Elkin, City and Regime in the American Republic, Chicago: University of Chicago Press, 1987, p. 176; Christian Bay, Strategies for Political Emancipation, Notre Dame: University of Notre Dame Press, 1981, pp. 152–160; Jane Jacobs, The Death and Life of Great American Cities, 50th Anniversary ed., New York: Modern Library, 2011, pp. 544–557.
- ³⁷ Iris Marion Young, Justice and the Politics of Difference, op. cit., p. 254.
- ³⁸ Ibid., p. 254.
- ³⁹ Marion Carrel, Cit., p. 15.
- ⁴⁰ Ibid., pp. 16-18.
- ⁴¹ Claus Offe et Ulrich Preub, « Les institutions démocratiques peuvent-elles faire un usage "efficace" des ressources morales ? » dans Claus Offe, Les démocraties modernes à l'épreuve, Paris : L'Harmattan, 1997, pp. 223–224.
- ⁴² Voir Alain Deneault, Gouvernance: Le management totalitaire, Montréal: Lux, 2013.
- ⁴³ Loïc Blondiaux, « Démocratie locale et participation citoyenne : la promesse et le piège, » Mouvements, n° 18 (nov.–déc. 2001): 47–48.
- ⁴⁴ Habermas, Jürgen. De l'éthique de la discussion. Paris: Flammarion, 2013.
(Originally published 1991), p. 34.
- ⁴⁵ Ibid., p. 34.
- ⁴⁶ Ibid., p. 81.
- ⁴⁷ Ibid., p.70.
- ⁴⁸ Ibid., p.141.
- ⁴⁹ Habermas, Jürgen. Droit et démocratie: Entre faits et normes. Paris: Gallimard, 1997, p. 126.
- ⁵⁰ Ibid., p.387.
- ⁵¹ Ibid., p.154.
- ⁵² Estlund, David. L'autorité de la démocratie. Paris: Hermann, 2011. (Originally published as Democratic Authority, 2008.), p. 221.
- ⁵³ Ibid., p.12.
- ⁵⁴ Ibid., p.21.
- ⁵⁵ Ibid., p.183.
- ⁵⁶ Ibid., pp.68-69.
- ⁵⁷ Young, Iris Marion. Inclusion and Democracy. Oxford: Oxford University Press, 2000, pp.5-6.
- ⁵⁸ Young, Iris Marion. "La démocratie délibérative à l'épreuve du militantisme." Raisons Politiques, no. 42 (2011). (Originally published 2001.), p.153.
- ⁵⁹ Ibid., p.174.
- ⁶⁰ Young, Iris Marion. Inclusion and Democracy. Oxford: Oxford University Press, 2000, p.7.

- ⁶¹ Young, Iris Marion. "La démocratie délibérative à l'épreuve du militantisme." *Raisons Politiques*, no. 42 (2011). (Originally published 2001.), pp.156-157.
- ⁶² Sherry R. Arnstein, « A Ladder of Citizen Participation, » *Journal of the American Institute of Planners* 35, no. 4 (1969): 216.
- ⁶³ Ibid.
- ⁶⁴ Arnstein, S. R. (1969), A Ladder of Citizen Participation, *Journal of the American Institute of Planners* 35(4): p.218
- ⁶⁵ Ibid., p. 219.
- ⁶⁶ Gene Rowe et Lynn J. Frewer, « Public participation methods: a framework for evaluation, » *Science, Technology, & Human Values* 25, no. 1 (2000): 3–29.
- ⁶⁷ Arnstein, S. R. (1969), A Ladder of Citizen Participation, *Journal of the American Institute of Planners* 35(4): p.219.
- ⁶⁸ Ibid., pp. 220-221.
- ⁶⁹ Rowe, G., & Frewer, L. J., Public participation methods: a framework for evaluation, *Science, Technology, & Human Values* 25(1) (2000): 3–29.
- ⁷⁰ Arnstein, S. R. (1969), A Ladder of Citizen Participation, *Journal of the American Institute of Planners* 35(4): pp. 222–223.
- ⁷¹ Carole Pateman, *Participation and Democratic Theory*, Cambridge, UK: Cambridge University Press, 1970, ch. IV, pp. 67-68–70-72.
- ⁷² Ibid., pp. 72–76.
- ⁷³ Ibid., p.70.
- ⁷⁴ Ibid., pp. 76–82.
- ⁷⁵ Ibid.
- ⁷⁶ Ibid., pp.70-71.
- ⁷⁷ Ibid.
- ⁷⁸ Arnstein, Sherry R., Cit., pp. 216–224.
- ⁷⁹ Arthur Lupia et John G. Matsusaka, « Direct Democracy: New Approaches to Old Questions, » *Annual Review of Political Science* 7 (2004): 463–482.
- ⁸⁰ Bernard Manin et Loïc Blondiaux, « L'idée de démocratie délibérative dans la science politique contemporaine: Introduction, généalogie et éléments critiques, » *Politix* 15, no. 57 (2002): 37–55. See Jon Elster, « The Market and the Forum: Three Varieties of Political Theory, » in James Bohman & William Rehg (éds.), *Deliberative Democracy: Essays on Reason and Politics*, Cambridge: MIT Press, 1997, pp. 3–33.
- ⁸¹ David Miller, « Deliberative Democracy and Social Choice, » in David Held (éd.), *Prospects for Democracy*, Cambridge: Polity Press, 1993, p. 75.
- ⁸² J. S. Dryzek, « Discursive Democracy vs. Liberal Constitutionalism, » in Michael Saward (éd.), *Democratic Innovation: Deliberation, Representation and Association*, London & New York: Routledge & ECPR, 2000b, p. 79.
- ⁸³ Jürgen Habermas, *Between Facts and Norms: Contribution to a Discursive Theory of Law and Democracy*, Cambridge: MIT Press, 1996, pp. 305–306.
- ⁸⁴ Joshua Cohen, « Deliberation and Democratic Legitimacy, » in A. Hamlin & P. Pettit (éds.), *The Good Polity: Normative Analysis of the State*, Oxford: Basil Blackwell, 1989, pp. 23–24.
- ⁸⁵ Ibid., pp. 18–19.
- ⁸⁶ Adam Przeworski, « Deliberation and Ideological Domination, » in Jon Elster (éd.), *Deliberative Democracy*, Cambridge, UK: Cambridge University Press, 1998, p. 142.
- ⁸⁷ James D. Fearon, « Deliberation as Discussion, » in Jon Elster (éd.), *Deliberative Democracy*, Cambridge, UK: Cambridge University Press, 1998, p. 49.
- ⁸⁸ David Miller, « Deliberative Democracy and Social Choice, » in J. S. Fishkin & P. Laslett (éds.), *Debating Deliberative Democracy*, Malden, MA: Blackwell, 2003, p. 187.
- ⁸⁹ Ibid., p. 188.
- ⁹⁰ Ibid., p. 195.
- ⁹¹ Peter Bachrach, « Interest, Participation and Democratic Theory, » in R. Pennock & J. Chapman (éds.), *Participation in Politics*, New York: Lieber-Atherton, 1975, p. 41.
- ⁹² Ibid., p. 50.
- ⁹³ Timothy Webler & Ortwin Renn, « A Brief on Participation: Philosophy and Practice, » in Ortwin Renn, Timothy Webler & Peter Wiedemann (éds.), *Fairness and Competence in Citizen Participation*, Dordrecht: Kluwer, 1995, pp. 17–33.
- ⁹⁴ C. S. King, K. M. Feltey & B. O'Neill Susel, « The Question of Participation: Toward Authentic Public Participation, » *Public Administration Review* 58, no. 4 (1998): 317–326.
- ⁹⁵ Eric Hauptmann, « Can Less Be More? Leftist Deliberative Democrats' Critique of Participatory Democracy, » *Polity* 33, no. 3 (2001): 408.
- ⁹⁶ Ibid.
- ⁹⁷ James Bohman, *Public Deliberation, Pluralism, Complexity and Democracy*, Cambridge: MIT Press, 1996, p. 241.

6. قَائِمَةُ المَرَا جِع:

• المُوَلَّفَاتُ:

1. Barber, Benjamin R. La démocratie forte. Paris: Desclée de Brouwer, 1997.
2. Barber, Benjamin R. Jihad versus McWorld: Mondialisation et intégrisme contre la démocratie. Paris: Desclée de Brouwer, 1996.
3. Barber, Benjamin R. Comment le capitalisme nous infantilise. Paris: Fayard, 2007.
4. Bay, Christian. Strategies for Political Emancipation. Notre Dame: University of Notre Dame Press, 1981.
5. Biehl, Janet. Le municipalisme libertaire: La politique de l'écologie sociale. Montréal: Écosociété, 2013.
6. Bohman, James, and William Rehg, eds. Deliberative Democracy: Essays on Reason and Politics. Cambridge, MA: MIT Press, 1997.
7. Bohman, James. Public Deliberation, Pluralism, Complexity and Democracy. Cambridge, MA: MIT Press, 1996.
8. Dahl, Robert. Après la révolution. Paris: Calmann-Lévy, 1973.
9. Decourt, A., et F. Gleize. Démocratie participative en Europe. Les Cahiers de la Solidarité, n° 8. Bruxelles: Les Cahiers de la Solidarité, 2006.
10. Deneault, Alain. Gouvernance: Le management totalitaire. Montréal: Lux, 2013.
11. Elkin, Stephen L. City and Regime in the American Republic. Chicago: University of Chicago Press, 1987.
12. Estlund, David. L'autorité de la démocratie. Paris: Hermann, 2011.
13. Fishkin, J. S., and P. Laslett, eds. Debating Deliberative Democracy. Malden, MA: Blackwell, 2003.
14. Habermas, Jürgen. Between Facts and Norms: Contribution to a Discursive Theory of Law and Democracy. Cambridge: MIT Press, 1996.
15. Habermas, Jürgen. De l'éthique de la discussion. Paris: Flammarion, 2013. (Originally published 1991).
16. Habermas, Jürgen. Droit et démocratie: Entre faits et normes. Paris: Gallimard, 1997.
17. Held, David, ed. Prospects for Democracy. Cambridge: Polity Press, 1993.
18. Hurard, Marine. La participation citoyenne au développement durable à l'échelle locale en Europe. Think Tank Européen pour la Solidarité (ASBL), Bruxelles, août 2011.
19. Jacobs, Jane. The Death and Life of Great American Cities. 50th Anniversary ed. New York: Modern Library, 2011.
20. Macpherson, C. B. La théorie politique de l'individualisme possessif. Paris: Folio, 2004.
21. Macpherson, C. B. The Life and Times of Liberal Democracy. Oxford: Oxford University Press, 1977.
22. Mill, John Stuart. Considérations sur le gouvernement représentatif. Paris: Gallimard, 2009.
23. Offe, Claus, et Ulrich Preub. (chap.) « Les institutions démocratiques peuvent-elles faire un usage "efficace" des ressources morales? » In Claus Offe, Les démocraties modernes à l'épreuve, Paris: L'Harmattan, 1997.
24. Parkinson, John. Deliberating in the Real World: Problems of Legitimacy in Deliberative Democracy. 2006.
25. Pateman, Carole. Participation and Democratic Theory. Cambridge: Cambridge University Press, 1970.
26. Pennock, Robert, and J. Chapman, eds. Participation in Politics. New York: Lieber-Atherton, 1975.
27. Renn, Ortwin; Webler, Timothy; and Peter Wiedemann, ed. Fairness and Competence in Citizen Participation. Dordrecht: Kluwer, 1995.
28. Wright, Erik Olin. Envisioning Real Utopias. London: Verso, 2010.
29. Young, Iris Marion. Justice and the Politics of Difference. Princeton: Princeton University Press, 1990.
30. Young, Iris Marion. Inclusion and Democracy. Oxford: Oxford University Press, 2000.

1. Arnstein, Sherry R. "A Ladder of Citizen Participation." *Journal of the American Institute of Planners* 35, no. 4 (1969): 216–224.
2. Bachrach, Peter. "Interest, Participation and Democratic Theory." In *Participation in Politics*, edited by Robert Pennock and J. Chapman, 41–50. New York: Lieber-Atherton, 1975.
3. Blondiaux, Loïc. "Démocratie locale et participation citoyenne: la promesse et le piège." *Mouvements*, no. 18 (Nov.–Dec. 2001): 47–48.
4. Carrel, Marion. "La démocratie participative dans les quartiers populaires: Obstacles et leviers." *Les Cahiers du Pôle, Débat*, 15 January 2008.
5. Cohen, Joshua. "Deliberation and Democratic Legitimacy." In *The Good Polity: Normative Analysis of the State*, edited by A. Hamlin and P. Pettit, 23–24. Oxford: Basil Blackwell, 1989.
6. Elster, Jon. "The Market and the Forum: Three Varieties of Political Theory." In *Deliberative Democracy: Essays on Reason and Politics*, edited by James Bohman and William Rehg, 3–33. Cambridge, MA: MIT Press, 1997.
7. Fearon, James D. "Deliberation as Discussion." In *Deliberative Democracy*, edited by Jon Elster, 49. Cambridge: Cambridge University Press, 1998.
8. Føllesdal, Andreas. "Survey Article: Subsidiarity." *The Journal of Political Philosophy* 6, no. 2 (1998): 231–259.
9. Fung, Archon. « Varieties of Participation in Complex Governance. » *Public Administration Review* 66 (2006): 66.
10. Hauptmann, Eric. "Can Less Be More? Leftist Deliberative Democrats' Critique of Participatory Democracy." *Polity* 33, no. 3 (2001): 408.
11. King, C. S., K. M. Feltey, and B. O'Neill Susel. "The Question of Participation: Toward Authentic Public Participation." *Public Administration Review* 58, no. 4 (1998): 317–326.
12. Lupia, Arthur, and John G. Matsusaka. "Direct Democracy: New Approaches to Old Questions." *Annual Review of Political Science* 7 (2004): 463–482.
13. Manin, Bernard, and Loïc Blondiaux. "L'idée de démocratie délibérative dans la science politique contemporaine: Introduction, généalogie et éléments critiques." *Politix* 15, no. 57 (2002): 37–55.
14. Miller, David. "Deliberative Democracy and Social Choice." In *Debating Deliberative Democracy*, edited by J. S. Fishkin and P. Laslett, (Malden, MA: Blackwell, 2003), 187–195.
15. Miller, David. « Deliberative Democracy and Social Choice. » In D. Held (éd.), *Prospects for Democracy*, Cambridge: Polity Press, 1993.
16. Miller, David. « Deliberative Democracy and Social Choice. » In J. S. Fishkin et P. Laslett (éds.), *Debating Deliberative Democracy*, Malden, MA: Blackwell, 2003.
17. Przeworski, Adam. « Deliberation and Ideological Domination. » In *Deliberative Democracy*, édité par Jon Elster, Cambridge: Cambridge University Press, 1998, p. 142 (chapitre).
18. Rowe, Gene, and Lynn J. Frewer. "Public Participation Methods: A Framework for Evaluation." *Science, Technology, & Human Values* 25, no. 1 (2000): 3–29.
19. Webler, Timothy, and Ortwin Renn. "A Brief on Participation: Philosophy and Practice." In *Fairness and Competence in Citizen Participation*, edited by Ortwin Renn, Timothy Webler, and Peter Wiedemann, Dordrecht: Kluwer, 1995, pp. 17–33.
20. Young, Iris Marion. "La démocratie délibérative à l'épreuve du militantisme." *Raisons Politiques*, no. 42 (2011).